خطبة عائشة رضي الله عنها

في الدفاع عن أبيها

دراسة أدبية

الدكتور
جابر بن بشير المحمدي
أستاذ مساعد – الأدب والبلاغة
الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة

خطبة عائشة رضي الله عنها في الدفاع عن أبيها دراسة أدبية

الدكتور
جابر بن بشير المحمدي
أستاذ مساعد – الأدب والبلاغة
الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين، وبعد

تعد الخطابة من أقدم الفنون القولية، وأبرزها حضوراً في مجال التعبير، وهي كما يعبر عنها البعض سلاح المجتمعات، ووسيلتها الأولى في الدفاع عن الذات، وتعظم فضيلتها بكونها الوسيلة الأولى والأبلغ في دعوة الرسل، وتبليغهم عن ربهم جل وعلا، وغني عن الذكر ما حفلت به الخطابة من مكانة في الإسلام في دعوته ﷺ من لدن مبعثه حتى مماته عليه أفضل الصلاة والسلام وما نالته في العصور الإسلامية التالية لعصر الصدر الأول من الخلفاء الراشدين، في القرن الأول، وما استحالت إليه من وسيلة دعوة سياسية، تستمال بها النفوس النافرة، وتقتنع العقول الجاهدة، وتجيَّش بها الجيوش المقاتلة في عصور التأريخ المختلفة فيما بعد.

وقد وقفت على هذه الخطبة الفريدة في موضوعها، البليغة في أسلوبها، للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، تدفع فيها عن أبيها ما لاكته الألسن من خطل القول، وترسل خطبتها في عبارة قوية مؤثرة تجللت ببديع الألفاظ، وجميل الصور، فهي من أجل

النصوص بعد الأحاديث التي أشارت إلى فضل الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- ومنزلتهما في الإسلام.

فالخطبة نص ديني تأريخي، أدبي يصور فضل الشيخين خليفتي رسول الله ﷺ، وتقرر فيه عائشة رضي الله عنها الحقائق الواجب الإيمان بها في حقهما رضي الله عنهما.

والنص الذي بين أيدينا ليس كغيره من النصوص الخطابية، فقد امتاز ببلاغة فريدة، مع إيجاز العبارة، على الرغم من سعة موضوعه، وهو في المقياس النقدي من أكثر النصوص الخطابية اكتمالاً في الجانب الفني، فلن نجد عنصرا من عناصر الأسلوب الخطابي، إلا وقد تمثل لنا في هذه الخطبة جلياً رائعاً.

ومن هنا فقد حرصت على دراسته دراسة أدبية تكشف بعض جوانبه، وتحللها، ولا أدعي أنّي أوفيته حقّه من الدراسة ولكنني اجتهدت غاية جهدي في تحليله وكشفه، وسبر أغواره؛ لنقف على مشارق الجمال في طياته، وما بعث في النفوس من تداعيات التأريخ وثقافة المسلمين الأُوَل، وفصاحة العرب، وبلاغتهم وبيانهم، وما نالت في ظل الإسلام من جمال اللفظ، وحسن العبارة، ودقة التصوير، وجلاء الغرض، مع عظم الغاية، ونبل الهدف، يبعث عليه حب الحق والخير، واستشعار عظم الرسالة الملقاة على كواهل المؤمنين، ببيان الحق، ورد المنحرفين عن جادة الصواب إلى طريقه الواضح الجلي.

وقد جعلت دراسة النص في عدة مباحث اقتضاها الحديث عن الخطبة وتحليلها، محاولاً إعطاء كل مبحث ما يفي له بحقه من التحليل والبيان.

وتلك المباحث هي:

المبحث الأول: الخطبة: النص والتوثيق.

المبحث الثاني: في أجواء الخطبة.

المبحث الثالث: عائشة الصحابية لبنيغة.

المبحث الرابع: أبو بكر الصديق الخليفة.

المبحث الخامس: الخطبة: الباعث والفكرة.

المبحث السادس: البناء والأداء.

المبحث السابع: الأسلوب.

المبحث الثامن: الصورة الفنية.

المبحث التاسع: التأثير العاطفي.

الخاتمة.

الفهرس.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه في هذا التناول الأدبي الذي لا أدعي له الكمال، ولكنني أسأل الله أن يجعله له خالصاً. وأن يمن عليّ بالتوفيق والسداد في الأمور كلها، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

د. جابر بن بشير المحمدي

كلية اللغة العربية – الجامعة الإسلامية

المدينة المنورة

المبحث الأول: الخطبة: النص والتوثيق

أولا: نص الخطبة:

يروى أنه بلغ عائشة -رضي الله عنها- أن أقواماً يتناولون أبا بكر -ﷺ- فأرسلت إلى أزْفَلَة[1] من الناس، فلما حضروا أسدلت أستارها، وعلت وسادها، ثم قالت:

"أبي وما أبيه، أبي والله لا تَعْطَوه[2] الأيدي، ذاك طَوْدٌ[3] مُنيفٌ، وفَرْعٌ مَديدٌ، هَيْهَاتَ كَذَبَتِ الظُّنُونُ، أنْجَحَ إذْ أكْدَيْتُمْ[4]، وسَبَقَ إذْ وَنَيْتُمْ[5]، سَبْقَ الجَوَادِ إذا استَوْلَى عَلى الأَمَدِ[6]. فَتَى قُرَيْش نَاشِئاً، وكَهْفُهَا كَهْلاً، يَفُكُّ عَانِيَهَا، ويَرِيشُ[7] مُمْلِقَهَا، ويَرْأَبُ شَعْبَهَا[8]، ويَلُمُّ شَعْثَهَا، [حتى حَلِيَتْهُ قلوبها]. ثم استُشْرَى[9] في دِينِه، فما بَرِحَتْ شَكِيمَتُه[10] في ذَاتِ الله حتى اتَّخَذَ بِفِنَائِه مَسْجِداً يُحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطِلُونَ.

---

(١) الأزفلة: الجماعة من الناس. أنشد الجوهري:

إنـي لَـأَعْلَمُ مـا قَـوْمٌ بأزْفَلَـةٍ ... جـاءوا لأخْبَـرَ مَـنْ ليلـي بأكيـاس

جاءوا لأخبرَ مَنْ ليلى فَقُلْتُ لهم ... وليلى من الجن أم ليلى من الإنس

وأراد بأزفلة: أي بجماعة من الناس. الصحاح (زفل) ٤/١٦١٦.

(٢) تعطوه: تناوله.

(٣) الطود: الجبل. والمنيف: المشرف، والجبل الشاهق.

(٤) أي: خبتم.

(٥) أي: فترتم، وضعفتم.

(٦) أي: الغاية.

(٧) أي: يعطي ويفضل. ومملقها: فقيرها.

(٨) يرأب: يجمع ويلأم ويصلح. والشَّعَب: الكسر والتفرق، ومثله شعثها.

(٩) احتدّ ولحّ، وجدّ وقوي، واهتم به. اللسان (شرى).

(١٠) الشكيمة: الأنفة والحمية، هو شديد الشكيمة: أنف أبيٌّ لا ينقاد. ويقال: فلان شديد الشكيمة إذا كان ذا عارضة وجدّ. وتطلق على قوة القلب.=

=

كانَ وَاللهِ غَزِيرَ الدَّمْعَةِ، وَقِيذَ الْجَوَانِحِ[1]، شَجِيَّ النَّشِيجِ[2]. فَأَقْصَفَتْ[3] عَلَيْهِ نِسْوَانُ أَهْلِ مَكَّةَ وَوِلْدَانُهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَسْتَهْزِؤُونَ بِهِ. ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[4] وَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ رِجَالاتُ

=وإنه لشديد الشكيمة إذا كان شديد النفس أنفا أبيّا. اللسان (شكم) ٣٢٤/١٢.
وأصله من شكيمة اللجام، وهي: الحديدة المعترضة في فم الفرس؛ فإن قوتها تدل على قوة الفرس، ويقال: فلان ذو شكيمة إذا كان لا ينقاد.

(١) وقيذ: عليل. في "أساس البلاغة": "من المجاز وقذته العبادة". ٥٢١/٢. وفي اللسان: "وقذه الحلم: سكنه. وروي عن عمر أنه قال: إني لأعلم متى تهلك العرب، إذا ساسها من لم يدرك الجاهلية فيأخذ بأخلاقها، ولم يدركه الإسلام فيقذه الورع". (وقذ) ٥١٩/٣.
والجوانح: الضلوع القصار التي تقرب من الفؤاد. وأرادت بذلك الكناية عن حلمه وتعبده، وإنهاك العبادة له من أثر الورع، وشدة بكائه خوفاً من الله، وإشفاقاً على نفسه.

(٢) شجي النشيج: الشجي: الحزين. والنشيج: صوت البكاء. في غريب الحديث: النشيج: أن يغصّ بالبكاء مع صوت. ومنه نشيج الطعنة عند خروج الدم، والشجا: ما نشب في الحلق من غصة هم". ١١٤/٢. والمعنى: أنه كان شجياً في بكائه.

(٣) أقصفت: انثنت. وفي اللسان (قصف) انقصفوا عنه، إذا تركوه ومرّوا. والانقصاف: الاندفاع. ولعل هذا أقرب المعاني إلى السياق؛ لأنه ورد في الحديث أن أبا بكر -رضي الله عنه- كان يصلي ويقرأ القرآن فتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم" أي: يزدحمون. ورواه ابن الأثير (الغريب ١١٤/٢): "فانصقفت عليه" من أصفق القوم على كذا، إذا أجمعوا عليه، كما ذكر رواية أخرى له (انصفقت) من صفقه إذا ضربه، وصرفه وأرادت صرفهم إليه صارف التلهي والسخرية فسارعوا إليه. الغريب ١١٥/٢.

(٤) سورة البقرة، رقم الآية (١٥).

قُرَيْشٍ فَحَنَتْ قِسِيَّها، وَفَوَّقَتْ سِهَامَهَا[1]، وَامْتَثَلَتْهُ غَرَضاً[2]، فَمَا فَلُّوا لَهُ صَفَاةً[3]، وَلا قَصَفُوْا لَهُ قَنَاةً[4]، وَمَضَى عَلَى سَيْسَائِهِ[5]، حَتَّى ضَرَبَ الدِّيْنُ بِجِرَانِهِ[6]، وَرَسَتْ أَطْوَادُهُ[7]، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيْهِ أَفْوَاجاً، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَالاً[8] وَأَشْيَاعاً[9]، اخْتَارَ اللهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ.

فلما قبض الله نبيه -ﷺ- اضطرب حبل الدين، ومَرَجَ[10] عَهْدُهُ، وماج

(١) حنت قسيها، وفوقت سهامها: كناية عن شدة العداء والاستعداء على أبي بكر، وحنا قوسه: عطفه تهيأ للحرب والنزال، وفوّق السهم وضعه على الوتر ليرمي به. اللسان (فوق) و(حنا).

(٢) امتثلته غرضا: نَصَّبَتْه: وفي غريب الحديث (١١٥/٢) امتثوله غرضا أي نصبوه من المائل وهو المنتصب. والغرض: ما يقصد به الرّمي.

(٣) فلوا: كسروا. والصفاة: الصخرة الملساء.

(٤) رواه ابن الأثير "ولا قصموا" والقصْمُ والقصْفُ: الكسر. غريب الحديث ١١٣/٢-١١٥). وكنت بذلك عن ثباته وشدته في الحق.

(٥) معناه: على شدّته. والسيساء: عظم الظهر وحدّه، تضربه العرب مثلاً في شدّة الأمر. قال الشاعر: لقد حملت قيسَ بن عيلان حربُنا
على يابس السيساء محدودب الظَّهْر
ديون الأخطل ص (١١١)، واللسان (سيس).

(٦) الجران: الصدر. يقال للصدر: الجران والبرك. وفي غريب الحديث ١١٥/٢: الضرب بالجران: الثبات والإقامة مستعار من بروك البعير.

(٧) رست: ثبتت. وأطواده: جمع طود،وهو الجبل العظيم.

(٨) أرسالاً: جماعات وأفواجا. اللسان (رسل).

(٩) أشياعاً: فِرَقا. اللسان (شيع)

(١٠) مرج: اختلط.

أهله[1]، وبُغي الغوائل[2]، ونُصبت الحبائل[3]، وظَنَّت رجال أن قد أكثب نهزها[4]، ولات حين الذي يظنون[5]، وأنّى والصديق بين أظهرهم، فقام حاسراً مشمّراً فرفع حاشيتيه، وجمع قطريه[6]. ولَمَّ شَعَثَه بطبِّه[7]، وأقام أوده بِثِقَافِه[8]،حتى امذقرّ[9] النفاق

---

(١) وماج أهله: اضطربوا وتنازعوا. قال -ابن الأنباري- ثنا أبو بكر، قال: ثنا الكديمي، قال: ثنا يحيى بن عمر الليثي، قال: ثنا مسلم بن قتيبة عن وهب بن حبيب، عن أبي حمزة، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٖ﴾ [سورة ق رقم الآية ٥] قال: مختلط. أما سمعت قول الشاعر - أبي ذؤيب الهذلي-:

فجالت والتمست به حشاها فخرّ كأنه خوط مريج.

ديوان أبي ذؤيب.

الخوط: الغصن، وجمعه خيطان. وينظر في ذلك اللسان (خلط، وخوط).

وفي تفسير ابن كثير ٤/٢٣٧:"المريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر".

(٢) بغي الغوائل: معناه طلبت له البلايا التي تضعفه. والغوائل: جمع غائلة (الداهية) اللسان (غيل).

(٣) نصبت الحبائل: جمع حبالة، وهي التي يصاد بها، ويكنى بها عن الموت. قال لبيد:

حبائله مبثوثة بسبيله ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل.

ديوان لبيد وينظر: اللسان (حبل).

(٤) أن قد أكثب نهزها: معناه: قرب، والنَّهْز: الاختلاس للشيء كيما يظفر به مبادرة.

(٥) معناه: وليست الساعة حين ظفرهم.

(٦) معناه: بحزم في الأمور وجدّ، وتأهب وتشمر لنصرة الدين. وزاد ابن الأثير "لتلافي الأمر". والقطر: الناحية.

(٧) الطب: الدواء.

(٨) الأود: العوج. والثقاف: تقويم الرماح وغيرها.

(٩) امذقر: تفرق. وفي رواية غير إسماعيل القاضي: وابذعر النفاق. يقال: ابذعرّ الشيء، وابذقرّ، وامذقرّ، أي: تفرق. ينظر: اللسان (مذر).

بوطنه، فلما انتاش الدين[1] فنعشه[2]، وأراح الحقَّ على أهلـه[3]، وقَرَّرَ الرؤوس على كواهلها[4]، وحقن الدماء في أُهُبِها[5].

فلما حضرته منيته فَسَدَّ ثلمته[6] بنظيره في المعدلة، وشقيقه في السيرة والمرحمة، ذاك ابن الخطاب! لله در أمٍّ حفلَتْ[7] لـه، ودرّت عليه وأوحدت به[8]، ففتح الكَفْرة[9] ودَنَّخَها[10]، وشرَّد الشرك شذر مذر[11]،

---

(١) انتاش الدين: أزال عنه ما يخاف عليه.

(٢) ونعشه: رفعه. وعند ابن الأثير: معناه: أن تناوله وتنزعه من النوش. والنعش: الإقامة من المصرع.

(٣) أي أعاد الزكاة التي منعتها العرب، ثم ردّت إلى حكم الله وسنة رسوله في أهلها لما قاتلهم. وهو مأخوذ من الإراحة من إرواح الراعي الإبل على أهلها. ابن الأثير ١١٦/٢.

(٤) أي وقى المسلمين القتل. والكاهل: أعلى الظهر وما يتصل به. اللسان (كهل).

(٥) معناه: رفع القتال عن المسلمين. والأهب جمع إهاب، وهو: الجلد. كنّت به عن الجسد.

(٦) أي فقده.

(٧) قولها: لله در أم حفلت له: معناه: جمعت اللبن لرضاعه، والشاة المُحَفَّلة: التي يجمع لبنُها في ضَرْعها. اللسان (حفل) ١٥٦/١١.

(٨) وقولها: أوحدت به: أي جاءت به منفرداً لا نظير له في زمانه.

(٩) ففتح الكفرة: أي غنم بلاد الكفار،ولعلها مأخوذة من الكفر، وهي القرية (سريانية). ومنه حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- "لتخرجنكم الروم منها كفراً كفراً إلى سنبك من الأرض ...". ينظر: اللسان (كفر) ٥/١٥٠، والفائق للزمخشري ٢٧٠/٣.

(١٠) ودنخها: أذلها وصغّرها. وفي غير هذه الرواية: فدَيْخَها" -بالياء- أي دوخها، كما يقال: تصوّح وتصيّح أي: تشقّق. ينظر: اللسان (دوخ) ١٦/٣. وينظر: نهاية الأرب ٢٣١/٧، والفائق ١١٦/٢.

(١١) أي أبعده. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [سورة الأنفال، رقم الآية (٥٧)] أي أوقع بهؤلاء؛ ليسمع من خلفهم من الكفار =

وبخع الأرض فنخعها[1]، حتى قاءت أُكُلَها[2]، ولفظت خبيئها[3]، تَرْأَمُه[4] ويصلد عنها[5]، وتصدّى له[6] ويأباها، ثم ظعن عنها على ذلك.

فأروني ما ترتؤون، وأيَّ يَوْمَيْ أبيْ تنقمون؟ أيومَ مُقامه إذ عدل فيكم، أم يومَ ظعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقال: أنشدكم الله هل أنكرتم ممّا قلت شيئاً؟ قالوا: اللهم لا.

فيفزع، فيهرب، فيتباعد عنك، ويقال: شردت القوم شذر مذر، أي: فرّقتهم فلم أترك منهم أحدا، ومثله: تفرقوا شَغَر بَغَر، جميعا بمعنى واحد. ينظر: اللسان (شغر) ٤/٤١٨.

(١) وقولها: بخع الأرض: أي شقها، ونخعها: استقصى عليها، وفي غير هذه الرواية "وبعج الأرض. أي شقها. ينظر: نهاية الأرب ٧/٢٣١، وصبح الأعشى ١/٢٤٨، وتأريخ ابن عساكر ٣٠/٣٩٠. وينظر: الفائق ٢/١١٦ وفيه: بخع الأرض: أنهكها بالحرث.

(٢) وقولها: حتى قاءت أكلها: تعني به جبي خراجها، وأخرجت خيراتها وثمراتها. وفي الفائق ٢/١١٦: أكلها: بذرها، أي أكلت البذر، وشربت ماء المطر، فقاءت ذلك حين أنبتت.

(٣) أي ما خبيء منها من خيراتها.

(٤) أي تعطف عليه.

(٥) أي لم يلق لها. وفي رواية النويري "ويصدف" عنها.

(٦) وتصدى له: أي تعرض له.

وعلق التبريزي بعد نهاية تفسيره للخطبة بقوله: "تمت خطبة عائشة -رضي الله عنها- وتفسير غريبها ولغتها، والحمد لله وحده، وصلواته على محمد وآله وصحبه وسلم كثيرا".

ثانياً: رواية النص وتوثيقه:

هذه خطبة عائشة رضي الله عنها تذكر فيها أباها (أبا بكر الصديق)، وقد عني المحدثون والمؤرخون بذكرها وروايتها لما لها من قيمة دينية، وتأريخية؛ فهي تمس جانباً عقدياً، وركيزة من ركائز الدولة الإسلامية في عقيدتها، وإيمانها برسالة نبيها ﷺ، وامتثالها، وخاصة في أمر الخلافة، وأحقية أبي بكر في توليه أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

وقد أوردها الطبراني في معجمه الكبير في الجزء الذي خصصه لأمهات المؤمنين، وفي حديثه عن "عائشة بنت أبي بكر الصديق" جعل بابا في كتابه عنوانه "باب خطبة عائشة رضي الله عنها"[1]، وأورد فيه خطبتها هذه كاملة، مع اختلاف يسير عما اعتمدته في هذه الدراسة التي رواها التبريزي بسند متصل إلى عروة بن الزبير ﷺ.

وعني بها ابن قتيبة في غريب الحديث إذ أوردها[2] وأورد بعض رواياتها، وشرح غريبها.

وجعلها أبو القاسم اللالكائي من جملة الآثار في مناقب أبي بكر ﷺ، ورواها بسندها في الحديث رقم (٢٤٧٢)[3]، قائلاً: "أنا محمد بن عبد الرحمن، قال: نا أحمد بن سليمان الطوسي، قال: نا الزبير بن بكار، قال: حدثني رجل عن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الله، قال: حدثني محمد بن القاسم مولى هاشم، قال: قال: ... ثم أورد النص

---

(١) المعجم ٢٣/١٨٤، حديث رقم (٣٠٠).

(٢) غريب الحديث ٢/١٧٤-١٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ.

(٣) ينظر أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٧/١٣٠٢، دار طيبة للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

باختلاف لفظي في روايته التي وردت عند ابن الأنباري وابن تيمية في منهاج السنة.

أما المحب الطبري فقد أوردها في مناقب أبي بكر الصديق عند ذكر ما روي عن عائشة في أبي بكر[1]، أورد عند كل جزء منها الروايات الواردة فيه. ثم قال بعدها: خرجه صاحب الصفوة في فضل عائشة في فصاحتها، وقال: حسن صحيح. وخرّجه الحافظ أبو القاسم السمرقندي بالروايات المزيدة، ثم أتبع حديثه بشرح غريبها ولفظها وشرح بعضاً من معانيها.

وعني بها ابن تيمية في كتابه منهاج السنة النبوية[3]، واعتمد رواية قريبة في لفظها من رواية ابن الأنباري، التي قامت حولها الدراسة في هذا البحث، وذكر في خاتمة الحديث أنه قد روى هذه الخطبة جعفر بن عون عن أبيه عن عائشة، وهؤلاء رواة الصحيحين، وقد رواها أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه، وبعضهم رواها عن هشام، ولم يذكر فيه عروة[4].

أما شارح هذه الخطبة محمد بن قاسم الأنباري فقد صدر شرحه[5] بذكر سند طويل يرفعه إلى يعقوب بن محمد الزهري عن أبي زيد مولى آل عمر بن الخطاب، ومن طريق آخر عن إسماعيل

---

(١) ينظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢١١/١، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أراد ابن نعيم في كتابه صفة الصفوة.والحديث في تأريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٠ حديث رقم: (٣٣٩٨).

(٣) منهاج السنة النبوية ١٤٣/٦-١٤٤، تحقيق: محمد رشاد سالم. قرطبة، سنة ١٤٠٦هـ.

(٤) منهاج السنة ١٤٧/٦.

(٥) ورد نص الخطبة وشرحها في مخطوط حققه صلاح الدين المنجد، ونشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٣٧.

بن إسحاق القاضي، قال: حدثنا عبد الله بن موسى بن طاهر حدثنا إسماعيل بن إسحاق عن أبيه عن يعقوب بن محمد الزهري. يزيد أحدهما على الآخر الحرف أو الحرفين ولا يخلان بالمعنى ....

وهذه الرواية هي أوضح روايات النص وأكثرها سلاسة، وأقربها إلى أسلوب عائشة في فصاحة لفظها، وسلامة عبارتها، ووضوح مقصدها، فأغلب الروايات الواردة بينها اختلاف في اللفظ. وبعضها مما لا يستقيم معه المعنى، ولعل المحدثين أرادوا إيراده باللفظ المروي على طريقتهم في توثيق روايات الحديث، ومنهجهم في ذلك. أما ابن الأنباري فاختار هذه الرواية المستقيمة وشرحها. وأبان معناها بتفسير غريبها لاستقامتها وسلامة أسلوبها.

وذكر في خاتمة شرحه سند قراءته لهذا النص المروي عن أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري. وأورد توثيق سماعه بذكر أسماء من شهد معه القراءة على المنذري.

وشرح الخطبة كتاب مخطوط أخرجه المجمع العلمي العربي بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ونشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد السابع والثلاثون، واعتمدت هذا التحقيق في دراسة النص. وبالله التوفيق.

المبحث الثاني: في أجواء الخطبة.

الخطبة نفثة مصدور، وغيرة مؤمن، وحجة بليغ، ومقولة صادق، بعث عليها ظلم الخصوم، ونصرة المظلوم، وإيضاح الحق المهضوم، فلم ترد عائشة بها الانتصار لأبيها الوالد الإنسان برًا به فحسب، وإنما آذاها ما حل به من هضم لمكانته، وما رمي به من مقولة جائرة، وحجة باينت الحق، وجانبت الصواب، فجاءت مقولتها شحنات تعبيرية متزنة على الرغم من الخطب المدلهم، وظلام الظلم. وعناد المظلوم، وأرسلت خطبتها بأسلوب هادئ، يحمل في طياته معاني عظيمة، وحججا وبراهين صادقة، في عبارات موجزة تعبر عن إيمانها، وإيمان العرب جميعاً بصدق ما جاءت به، وتواجه خصوم أبيها بعد موته بحقائق مشفوعة ببراهينها التي لا يمكنهم إنكارها.

فالنص يصور الأجواء التي أحاطت بالخطيبة حين أرادت – رضي الله عنها– أن تخطب في الناس مبينة الحق فيما يتعلق بشخصية أبي بكر –ﷺ–، وفيما يتناول حال الإسلام في بدء الدعوة المحمدية، وما رافقها من عوائق تحول دون الجهر بها أولاً، ثم قيام الدولة الإسلامية آخراً.

فالتأريخ يروي حال الصديق في جاهليته، وكيف كان معظما ورئيسا مكرما، وصاحب مال وتجارة، محبباً، سهلاً مألَفاً لقومه، وكان ذا خلق ومعروف، غلبت عليه صفات الفضل، والعلم، والوقار. والمروءة.

فأبو بكر الصديق –ﷺ– ذلك الصحابي الجليل اكتسب شهرته منذ إسلامه. ومرافقته للرسول ﷺ في رحلة دعوته منذ نزل عليه الوحي، وحتى وفاته ﷺ، واستحق بذلك الرتبة الرفيعة، والمنزلة العالية في الإسلام، وهي منزلة يحفظها له القرشيون قبل الإسلام؛ إذ عرف في مكة بمكارم الأخلاق، ومعالي الشيم، وسداد الرأي، وإغاثة

الملهوف، حين يلجأ إليه القرشيون في تحمل الديات، والصلح بين المتنازعين، والسفارة بين قريش وبين غيرها من القبائل.

ويفسر هذا الرصيد العظيم من الخلق النبيل، والجوانب النفسية السوية عند هذا الصحابي الجليل، مبادرته لتصديق النبي ﷺ، في موقف عصيب قل من يقف موقفه، فقريش في قوتها وعزها. وجاهها، وأموالها، وتجارتها الوفيرة، ومكانتها بين قبائل الجزيرة، وما لها من سطوة على مخالفيها، كل ذلك جعل موقفاً مثل موقف أبي بكر يندر في زمانه، وحاله، ومكانه، والتأريخ خير شاهد على ما وقع للنبي ﷺ من التكذيب، وما ناله في مكة من الأذى، وما كان لأبي بكر من مواقف جليلة إبان ذلك يجعل المؤمن يعظّم أبا بكر، ويجلّ فيه تلك الخلال الكريمة التي تفرد بها، ونال بها الشرف العظيم في الدنيا والآخرة.

ويؤكد موقفه في مكة معلناً إسلامه، يصدح به بين جموع القرشيين، وفي أرجاء مكة، ما كان بينه وبين رسول الله -ﷺ- قبل الإسلام من ألفة ومودة، كانت سبباً قوياً في أوليته بإعلان إسلامه من الرجال، وصار داعيةً إلى الإسلام، بخلقه، وما يبذله في سبيل ذلك من ماله فقد قام أبو بكر أول إسلامه يدعو إليه من وثق به من قومه، فأسلم بدعائه جمع من الصحابة الأوائل -رضي الله عنهم أجمعين-.

وتمثل شخصية أبي بكر -ﷺ- حال الإسلام وصورته منذ قيامه حتى استقرار الدولة الإسلامية، وثبات أركانها، واستقرار الإسلام، حين ضرب بجرانه، ورست أطواده في عهد رسول الله -ﷺ-، وفي عهد خليفته الصديق أبي بكر الذي خلف رسول الله مجاهداً ثابتاً على سنته، متتبعاً نهجه في الدعوة والجهاد.

وتولى أبو بكر الخلافة بعد رسول الله -ﷺ- بإجماع الصحابة على أحقيته بالخلافة وأفضليته، وولوه باختيارهم ورضاهم، وقال عنه عمر

بمحضر المهاجرين والأنصار: "أنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله -ﷺ-"[1]، ولم ينكر منهم منكر، ولا قال أحد من الصحابة إن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه.

ولا ينازع أهل السنة في خلافته وأفضليته، ولم يتكلم في خلافته إلا نفر من غيرهم، ممن نبتوا بعد عهده وعهد عمر، فهموا شيئاً خلاف الحق، من تأخير علي -ﷺ- عن مبايعته في اليوم الأول أو ستة أشهر في بعض الروايات في ذلك، ولم يلزمهم أبو بكر ببيعته، مع تعظيمهم لحقه، وفضله، ويشهد بذلك قول علي -ﷺ- في خطبته بعد وفاة فاطمة -رضي الله عنها-[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا ١٣٤١/٣، رقم الحديث: (٣٤٦٧).

(٢) الرياض النضرة ٢٤٣/١، وقد أورد المحب الطبري خطبة علي رضي الله عنه حين دخل علي وجمع من بني هاشم على أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين وخطب فقال: "أما بعد - فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكاراً لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا، ثم ذكر قرابته من رسول الله -ﷺ- وحقه، فلم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر". ثم خطب أبو بكر -رضي الله عنه، وذكر حبه لرسول الله -ﷺ-، وآل بيته، وصلته لهم، وذكر حقهم في الأموال التي ظنوا أن لهم فيها حقا، وروى لهم حديث رسول الله -ﷺ- "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة".
ثم قال علي -رضي الله عنه-: موعدك لبيعة العشية فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر علياً ببعض مما اعتذر به، ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر، فذكر فضيلته وسابقيته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه، وأقبل الناس إلى علي، فقالوا: أصبت وأحسنت. حديث صحيح متفق عليه.

وأهل السنة أيضاً لا ينازعون في كمال علي -ﷺ-، وأنه في الدرجة العليا من الكمال، وإنما النزاع في كونه أكمل من الثلاثة وأحق بالخلافة منهم.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "الكلام في خلافة الصديق إما أن يكون في وجودها، وإما أن يكون في استحقاقه لها.

أما الأول: فمعلوم بالتواتر واتفاق الناس بأنه تولى الأمر، وقام مقام الرسول -ﷺ- وخلفه في أمته، وأقام الحدود، واستوفى الحقوق، وقاتل الكفار والمرتدين، وولي الأعمال، وقسم الأموال، وفعل جميع ما يفعل الإمام، بل هو أول من باشر الإمامة في الأمة.

وأما إن أريد بإمامته كونه مستحقا لذلك؛ فهذا عليه أدلة كثيرة غير الإجماع، وحينئذ فالإجماع لا يحتاج إليه في الأولى، ولا في الثانية، وإن كان الإجماع أمراً حاصلاً[1].

ولكن أبا بكر لم يعدم طاعناً في شخصيته، وفعله، ممن لم يتشرب قلبه الإيمان كاملاً، ويمتثل السنة طاعة وامتثالا، ومثله في ذلك خليفته عمر، وهذا ما تشير إليه الصديقة عائشة -رضي الله عنها- في خطبتها التي بين أيدينا.

وقد أشار ابن تيمية إلى هذا الطعن في الشيخين، وقال -رحمه الله-: "أبوبكر وعمر لا تقوم الحجة بأنهما تركا واجباً، أو فعلا محرما أصلا، ولا يَطْعن على أبي بكر وعمر إلا أحد رجلين: إما رجل منافق، زنديق، ملحد، يتوصل بالطعن فيهما إلى الطعن في الرسول -ﷺ-، وهذا حال المعلم الأول للرافضة -أول من ابتدع الرفض- وحال أئمة الباطنية، كما قال مالك وغيره من أهل العلم.

---

(١) منهاج السنة ٤/٢٣٢، وأبو بكر الصديق (أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة) للقاسم ص (١٢٠، ١٢١).

وإما جاهل مفرط في الجهل والهوى، وهو الغالب على عامة الشيعة، إذا كانوا مسلمين في الباطن"[1].

وعن جابر -ﷺ- قال: قيل لعائشة: إن أناسا ينالون أصحاب رسول الله -ﷺ- حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر"[2].

وعن عروة، قال: قالت لي عائشة -رضي الله عنها-: "يا ابن أختي: أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله فسبوهم"[3].

ويظهر من الروايتين السابقتين عن جابر وعروة، ومقولة عائشة أن التعرض لأبي بكر وعمر بالإيذاء والطعن قد آذى المسلمين عامة، وأغضبهم، حتى شكوا ما يلاقون في الشيخين الجليلين أفضل الأمة بعد رسول الله -ﷺ- إلى عائشة -رضي الله عنها.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لعامة المسلمين فكيف بعائشة! وقد وقع الكلام بالنيل من أبيها موقعا مؤثرا من نفسها، بعثها على إنشاء هذه الخطبة البليغة، وإبداع هذا القول الجميل أسلوباً وخبرا ووصفاً.

وعائشة -رضي الله عنها- حين لاقت ما لاقت مما آذى نفسها وسمعها، لم تقبل ما نال أباها من بذيء القول، وسيء الفعل، أو الافتراء والافتيات على شخصه الكريم، بل بعث فيها نبل الصحابية الأم -رضي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التفسير، حديث رقم (٣٠٢٢). منهاج السنة ١٦٩/٢.

(٢) ابن الأثير: جامع الأصول ٥٥٣/٨. طبعة المكتب الإسلامي. وتأريخ دمشق ٢٩٣/٤٧، دار إحياء التراث بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ. تحقيق: علي عاشور. وينظر: أبو بكر أفضل الصحابة ص (١٣٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب التفسير، حديث رقم (٣٠٢٢).

الله عنها-، وحس الأمين المؤتمن على نقل رسالة من أعظم الرسالات، ألا وهي تبليغ الناس الحق، وإعادة الأمور إلى نصابها، في أسلوب الصحابي المحدث والرواية الثقة، والمؤرخ الصادق الرواية.

وحين رأت -رضي الله عنها- ذلك التجاوز للحق، والتجرد من العدل، فيما يتعلق بالصحابيين الجليلين (أبي بكر وعمر) -رضي الله عنهما- أدركت أنه لا بد من جلاء الحقائق، ولم تنس وهي في هذا الموقف المؤلم أن ترى أبناءها من المسلمين وبناتها المؤمنات أن التزام المرء بدينه خير معين له على الحق، فلم تضع حجابها في حال انفعالها ولم تبرز للرجال، ولم تخالف بفعلها قولها، بل أسدلت سُتَرَها، وحدثت الناس من وراء حجاب، تحدثهم، وتنير بصائرهم، وتقرر لهم الحقائق حسب حالهم، وتشهدهم على ما تقول بلسانهم.

المبحث الثالث: عائشة الصحابية البليغة.

ولدت عائشة بعد المبعث ونشأت في بيت أبيها أبي بكر الصديق أعلم العرب بتأريخ قريش وأنسابها وأيامها، ثم هاجرت إلى المدينة. فبنى بها رسول الله ﷺ وهي صغيرة فترعرعت في مهبط الوحي، ومنبع العلم تغرف منه ما يشاء لها ذكاؤها وعبقريتها وتأثرت بهدي الرسول فنشأت مجتهدة في دينها وعبادتها، وكان الرسول ﷺ حفيا بها يعلمها، ويعنى بها، ويخرج بها في غزواته، وكانت أخبر الناس بتأريخ الرسول والمسلمين، كما كانت أعلم بجاهلية العرب، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه حتى خلفها مرجعا وحجة يلجأ إليها الكبار والصغار متعلمين مستفتين.

وكانت هذه هي ثقافتها في بيت رسول الله ﷺ أما ما حملته من بيت أبيها الصديق فإحاطة واسعة بالأخبار والأشعار وأيام العرب وأنسابها ومفاخرها؛ فهي تروي القصيدة ستين بيتاً، وقد روى الشعبي أنها كانت تقول: "رويت للبيد نحوا من ألف بيت".

وكان عروة بن الزبير يقول: "لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قطُّ كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب ...، ولا بقضاء ولا بطب منها"[1].

وأثنى عليها الزهري بسعة علمها فقال: "لو جمع علم الناس كلهم وأمهات المؤمنين لكانت عائشة أوسعهم علماً"[2].

وقد عرف لها ذلك وأقر به الصحابة رضوان الله عليهم والأمة من بعدهم. فقد كان الناس يرون "علم عائشة قد بلغ ذروة الإحاطة

---

(١) أعلام النساء – عمر رضا كحالة، ٣/١٠٥، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) المصدر السابق ص (١٠٥)، التذكرة ١/٨٥.

والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه ... وكان عمر يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبي..."[1] ولا يضارعها أحد من النساء في ذلك على الإطلاق.

ورجع إليها كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه وأبي هريرة وابن عباس وابن الزبير، وقد نقل عنها وحدها ربع الشريعة على ما يقول الحاكم في مستدركه.

ولقد جمع الله فيها من المزايا والمواهب النادرة ما تعجب منه العقول وتعظم عنده الدهشة فهي عالمة نسابة أديبة.

إذاً ليس غريباً أن تصدر على لسانها هذه الخطبة البليغة التي بين أيدينا، فمن تخرج في هذه المدرسة البيانية ذات الأدب الغزير والمعرفة الواسعة، لم يستغرب منه أن يكون أبلغ عصره، وأن تسحر بلاغتها الجموع، وأن تعد أبلغ الخطب حتى قال عنها الأحنف بن قيس أحد بلغاء العرب: "

"سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم ... فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من فيّ عائشة"[2].

وقال معاوية بعد أن غادر مجلسها في أواخر أيامه: "والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله ﷺ"[3].

ولم يجئ في تأريخ الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ حتى اليوم مثل عائشة -رضي الله عنها- في عبقريتها العلمية والأدبية، وما لأم المؤمنين نظير في الفقه والفتوى، ورواية الحديث ومعرفة القرآن إلا قليل من أكابر الصحابة.

---

(١) المصدر السابق ٣/١٠٦.
(٢) أعلام النساء ٣/١١٢.
(٣) الجامع الصحيح للترمذي.

فهي تحفظ الشعر وترويه، وبصرها ثاقب بالأنساب، وبلغت في الطب بنسبة ذلك الزمان مبلغاً رفيعاً، ولم يك بين النساء في بلاغتها من تدنو من رحابها، وندر في الرجال من يبذها، وقليل منهم الذين يدانونها[1].

وآية عبقريتها في الفهم والثقافة واتساع آفاقها وبديهيتها الحاضرة نقاشها العلمي، فقد بلغت في المناقشة درجة رفيعة فهي -رضي الله عنها- تناقش طلباً للحق، وإقراراً له، فلا تناقش شهوة في الجدل أو إظهاراً للعلم والمعرفة، وإعلاناً للقدرة على كسب معركة الجدل[2].

وعائشة -بلغة العصر- أديبة ذات أسلوب مشرق رائع يمتاز بجواهر الكلام وغرر الحكم.

وتعد من أخطب خطباء العرب، وهي صاحبة بيان رائع خلاب، ومنطق قوي غلاب، وتستشهد في مواضع الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر، وتحفظ للشعراء قصائدهم مهما طالت وتحفظ دواوين حتى إنها قالت -وهي الصادقة ابنة الصديق- إني لأروي للبيد ألف بيت، وإنه لأقل ما أروي لغيره[3].

وتلك الفصاحة والبلاغة والرأي السديد أخذت عائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين ألباب من حولها، وعن ذلك قال موسى بن طلحة: "ما رأيت أحد أفصح من عائشة"[4].

"لقد امتلأت حياة عائشة بالخطب والمواقف العظيمة، وكان لا يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعراً"[5].

---

(١) ينظر: عائشة لأحمد عبد الغفور عطار ص (١٩٧).
(٢) ينظر: السابق ص (٢٠٠).
(٣) عائشة ص (٢١٠).
(٤) جامع الترمذي (٣٨٨٤)، ونساء بليغات ص (٢٧٧).
(٥) نساء بليغات ص (٢٧٧).

"وغزارة الاطلاع بينة -إلى جانب هذا- من لغة السيدة عائشة -رضي الله عنها- التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنهـا، ولا سيما الخطب والوصف خاصة. فقد كانت لها مادة من اللغة لا تتهيـأ بغير محصول كبير من أنباء العربيـة التـي تسـتقى مـن أعـرق مصادرها"(١).

وقد كان أسلوبها فيما يرتجل يناسب موضوعه، كما كان لهـا فيما يجوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل فيه بالتحضير.

(١) الصديقة بنت الصديق للعقاد ص (٥٠). طبعة دار المعارف.

المبحث الرابع: أبو بكر الصحابي الخليفة.

نسبه:

هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب.

يجتمع مع النبي ﷺ في "مُرّة بن كعب".

يكنى "أبو بكر" وعثمان هو أبو قحافة، وأمه سلمى بنت صخر بن عامر، تكنى "أم الخير"، وهي ابنة عمّ أبيه أسلمت وهاجرت.

وكان مولده ﷺ بعد الفيل بسنتين وستة أشهر.

وقد عرف في الجاهلية بمكارم الأخلاق، وقد عظم الجاهليون قريش خاصة بشأن أبي بكر فقد كان معظماً في قريش محبباً، مؤلفا، خبيرا بأنساب العرب وأيامهم، وكانوا يألفونه لعلمه وإحسانه. ومكارم أخلاقه ومقاصد التجارة يؤيد ذلك ما ورد في صحيح البخاري[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغُنَة أمير من أمراء العرب سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبابكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض. وأعبد ربي.

قال ابن الدغُنَة: فإن مثلك لا يخْرُجُ، ولا يُخْرَجُ، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتعين على نوائب الدهر، فأنا جار لك، فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغُنَة عشية في أشراف قريش، وقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرَج مثله ولا

---

(١) كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده ٨٠٣/٢، رقم (٢١٧٥). وكتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ١٤١٧/٣، رقم (٣٦٩٢).

يَخرُجُ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرئ الضيف، ويعين على نوائب الحق...." الحديث.

ولم يعلم أحد من قريش عاب أبا بكر بعيب، ولا نقصة، ولا استرذله، كما كانوا يفعلون بضعفاء المؤمنين، ولم يكن له عندهم عيب إلا الإيمان بالله ورسوله"[1].

وتواترت الأخبار في المصادر التأريخية والحديثية على خبرته بالأنساب، وكان ذلك محل تقدير قريش له، ووجل رجالاتها من معرفته بأنساب العرب وأيامها، وأخبارها، فقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما أمره بهجاء قريش: "لا تعجل إن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي".

وأخرج السيوطي في تأريخ الخلفاء أن ابن إسحاق أخرج عن يعقوب بن عتبة عن شيخ من الأنصار قال: "كان جبير بن مطعم من أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذت النسب من أبي بكر الصديق، فقد كان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بأنسابها، وبما فيها من خير وشر، فهو عالم من علماء الأنساب، وأخبار العرب، وكانت له مزية في ذلك حببته إلى قلوب العرب فلم يكن يعيب الأنساب، ولا يذكر المثالب بخلاف غيره.

ومما تقدم يعلم ما حازه أبو بكر الصديق ﷺ من الرصيد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي وكان محل قبول فيه، فهو أحد وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أن الشرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن:

- فالعباس بن عبد المطلب من بني هاشم، وكان يسقي الحجيج، وبقي له ذلك في الإسلام.

---

(١) منهاج السنة ٤/٢٨٨، ٢٨٩، ٢٦٨.

- وأبو سفيان بن حرب من بني أمية وكان عنده العقاب (راية قريش) فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسود هو وقدموه.
- والحارث بن عامر من بني نوفل، وكانت إليه الرفادة وهي ما تخرجه قريش من أموالها وترفد فيه منقطع السبيل.
- وعثمان بن طلحة بن زمعة بن الأسود من بني أسد، وكانت إليه المشورة فلا يجمعون على أمر حتى يعرضود عليه فإن وافق وإلا هم عليه، وإلا تخير وكانوا له أعوانا.
- وأبو بكر الصديق من بين تيم، وكانت إليه الأشناق، وهي الديات والمغارم، فكان إذا تحمل شينا فسأل فيه قريشا صدقود، وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلود.
- وخالد بن الوليد من بني مخزوم، وكانت إليه القبة والأعنّة. أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنّة فإنه كان على خيل قريش في الحرب.
- وعمر بن الخطاب من بني عدي، وكانت إليه السفارة في الجاهلية.
- وصفوان بن أمية، وكانت إليه الأزلام.
- والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم.

فالصديق ﷺ كان من خيار القرشيين يستعينون به فيما نابهم. ويحملون ما تحمله، وينهضون بما استنهضهم إليه، ومن يعد له من ضيافات بمكة يقري فيها الضيف لا يفطها أحد غيره. فرحم الله أبا بكر أهله خلقه ومروءته، وحسن سيرته قبل إسلامه، وإيمانه وإسلامه بعد بعثة الرسول ﷺ ليكون أول رجل في الإسلام بعد رسول الله، وأول خليفة بعده. وعلى يديه يعود الإسلام إلى أحياء الجزيرة بعد انتقاض أركانه. وارتداد العرب ونقضهم حبل الدين بعد أن ضرب الدين بجرانه.

المبحث الخامس: الخطبة: الباعث والفكرة.

الخطبة في موضوعها وبنائها وأدائها وأسلوبها وقفة صادقة من عائشة رضي الله عنها في وجه من نالوا من أبيها الصديق ﷺ، وهي على وجازتها رسالة مختصرة لسيرة الخليفة الأول، وحب رسول الله ﷺ، تناولت فيها أم المؤمنين سيرته وحياته في الجاهلية والإسلام، وجهاده مع رسول الله ﷺ في حياته وجهاده المرتدين والمشركين بعد توليه الخلافة. وقد ضمت الخطبة وقفات متعددة مع من نالته ألسنتهم قدحاً ظاهراً، أو نيلاً خفياً معترضين على خلافته في حياته، أو عدم إقرارهم بفضله وأفضليته بعد موته.

وتصور هذه الوقفات عدة أفكار تمثل في مجموعها مضمون الخطبة، وقد صاغتها عائشة رضي الله عنها على الرغم من توهج العاطفة الانفعالية في تناغم بديع، وترابط معنوي، وتناسق فكري منطقي دقيق، فقد سارت الخطبة على لسانها سلسلة السياق وبديعة التنقل في أجواء موضوعها، وجاءت متلاحمة في بنائها قوية في لحمتها الأسلوبية الأخاذة بجودتها، فليس هناك وثبات متفاوتة. أو متباينة المعنى والأداء، بل نحن أمام نص تجاوز تعرجات الخطابة المرتجلة وسياحتها الفكرية في تداعيات الموقف الخطابي وما يقتضيه من السياق الفكر وراء استطرادات أو تحليلات الخطابي وراء ما بعثه الموقف من استطرادات أو تحليلات أو سردية خطابية في صورة براهين أو استشهادات تدفع بها مشاعر الخطيب المفعمة بالانفعال، أو تصدياً للبواعث النفسية لدى المعترض الذي يشهد النص الخطابي بمبادرته بالدليل المحيط لاحتمالاته الموهمة بردّه ما يسرده الخطيب في مقولته، لا نجد ذلك أو قريباً منه في الخطبة التي بين أيدينا، فعائشة رضي الله عنها أمسكت منذ اللحظة الأولى بزمام الخطاب في رسم صورة بارعة لأبيها الصحابي لخليفة الصادق

المجاهد، العادل في سيرته وفي توليه الخلافة لمن رأى أنه غير خليفة لخليفة رسول الله ﷺ.

ويحسن بنا وقد تصورنا مضمون الخطبة أن نتعرف على تلك الوقفات الإيمانية والفكرية والسياسية التي حددت ملامح شخصية أبي بكر ﷺ الذاتية والسياسية كما قررتها عائشة رضي الله عنها في هذه الخطبة. وسأعتمد في تقرير الحقائق التي تضمنتها الخطبة على الربط بين النص الخطابي وبين المادة التأريخية والحديثية التي تدعم قول عائشة فيما ذهبت إليه في حديثها عن أبيها ﷺ، فالنص -هنا- وثيقة ومادة تأريخية وثيقة الصلة بالشخصية والعصر، وهو من الجانب الآخر نص أدبي بليغ اللغة، يجمع بلاغة الخطيب وأدبيات خطابه إلى جودة المضمون، وسلامة الفكرة، وبراعة الأداء. ودراسته الأدبية لا يمكن فصلها بحال عن دراسته التأريخية وخاصة في موضوعها الوثيق الصلة بتأريخ الأمة وعقيدتها.

وفي مواجهة الحدث الجلل تناولت عائشة -رضي الله عنها- الجوانب الدقيقة في حياة أبيبكر ﷺ وشخصيته، ففي مستهل الخطبة ومقدمتها تقرع أسماع المخاطبين ممن نالوا أباها بالتقليل من شأن مقولتهم الفجّة بهذا الاستفهام التعجبي المنكر لها، فأبي وما أبيه" تعقبه بنفي يحمل معنى التعظيم والإجلال فهو "لا تعطوه الأيدي" لعلو مكانته، ورفعة منزلته، فهو كالطود المنيف عظمة وشموخاً، وكالظل الوارف الذي ينعم به من مكث في أفيائه وبجواره، فتلك الترهات التي عبث بها القائلون ظنون وهيهات فقد بعدت الظنون عن الحق.

وأبو بكر ﷺ حق له أن يكون كذلك فقد أنجح والله إذ أكديتم وخسرتم، فلم تفوزوا بما ناله من سبقه للإسلام إذ ضعفتم عن نصرة النبي ﷺ ونصرة الإسلام، فكان سابقا كالجواد إذا استولى على غاية السباق وآخره.

وتلك حقيقة يقرها التأريخ فأبو بكر ﷺ عرف بسابقته إلى الإسلام، وتصديقه النبي ﷺ حينما كذبه قومه وناوءوه وتصدوا لدعوته، فقد كان صديقاً للنبي ﷺ، ولما بعث انطلق رجال من قريش إلى أبي بكر، فقالوا: يا أبا بكر إن صاحبك...قال: وما شأنه؟ هو ذلك في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد، ويزعم أنه نبي! قال أبو بكر (ﷺ): وقال ذلك؟ قالوا: نعم. فأقبل أبو بكر إلى النبي ﷺ فطرق عليه الباب، فاستخرجه، فلما ظهر له قال: يا أبا القاسم ما الذي بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني يا أبا بكر؟ قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وتزعم أنك رسول الله. قال: نعم يا أبا بكر، إن ربي جعلني بشيرا ونذيراً، وجعلني دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً.قال أبو بكر ﷺ: والله ما جرّبت عليك كذباً، وإنك لخليق بالرسالة، لعظم أمانتك، وصلتك بالرحم، وحسن فعالك، مدّ يدك أبايعك[1].

وقد وردت روايات ظاهرها التعارض في أولية من أسلم من الرجال والنساء ومن المسلمين عامة، وجاء ذكر علي وخديجة وزيد بن حارثة.

وقد جمع المحب الطبري ووفق بينها بقوله: "والأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها، فيقال: أول من أسلم مطلقاً خديجة بنت خويلد، وأول ذكر أسلم علي بن أبي طالب، وهو صبي لم يبلغ ... وكان مستخفياً في إسلامه، وأول رجل عربي بالغ أسلم وظهر إسلامه أبو بكر بن أبي قحافة، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة، وهذا متفق عليه لا خلاف فيه، وعليه يحمل قول علي وغيره أول من أسلم من الرجال أبو بكر أي الرجال البالغين"[2].

---

(١) الرياض النضرة ١/٨٤. وينظر: أبو بكر لعلي الطنطاوي ص (٧٢-٧٣).

(٢) الرياض النضرة ١/٨٩.

ويؤيد ذلك ما خرّجه الترمذي في جامعه "أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر، وأسلم علي وهو ابن ثماني سنين، وأول من أسلم من النساء خديجة"(١).

ومما يظهر فضل أولية أبي بكر في الإسلام ما أخرجه أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "ما كلمت في الإسلام أحداً إلا أبى عليَّ، وراجعني الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه"(٢).

وما أخرجه البخاري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: "هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلت: أيها الناس: إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت"(٣).

وقد كان سبقه ﷺ إلى الإسلام خصلة من خصال الخير غرسها الله في نفسه وطبعه عليها، وهداه إليها، فظل ﷺ سباقاً إلى الخير حياته كلها وقد وصفه أصحاب رسول الله ﷺ بالسبّاق لما عرفوا عنه من سبقهم جميعاً إلى الإسلام وإلى فداء النبي ﷺ بنفسه، وماله، يدفعه إلى ذلك حبه للنبي ﷺ، ونصرته له، وإيمانه الصادق بدعوته خليله المصطفى ﷺ.

ولم يكن فداء أبي بكر للرسول ﷺ في موقف الهجرة، وما لقياه في سبيل ذلك بدءا من اختفائهما في غار حراء، وما تبعه من مواقف في طريقهما إلى المدينة إلا صورة من صور الفداء وصدق الخلة، وصفاء الود لرسول الله ﷺ، وليس هو الموقف الأوحد في

---

(١) سنن الترمذي ٥/٦٤٣، رقم (٣٧٣٤).
(٢) ينظر: تأريخ دمشق لابن عساكر ٣٠/٣، حديث رقم (٢٣٩٨)، وتأريخ الخلفاء للسيوطي ص (٣٤).
(٣) كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا} ٤/١٧٠١، رقم (٤٣٦٤). وتأريخ دمشق لابن عساكر.

نصرة أبي بكر للنبي ﷺ في دعوته، فقد سبقته مواقف لا تقل نبلا ووفاء عنه، فأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها حدثت حين سئلت: ما أشدّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام فتذاكروا رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك، إذ دخل رسول الله ﷺ المسجد، فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدّقهم، فقالوا: ألست تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال: بلى. قالت: فتشبثوا به بأجمعهم، فأتى الصريخ أبا بكر، فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج أبو بكر فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ قالت: فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر الصديق يضربونه. قالت: فرجع إلينا، فجعل لا يمس شيئا من عذائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام"(١).

ويشهد التأريخ بمواقف أخرى لصديق الأمة في دفاعه عن رسول الله ﷺ كصنيعه حين رأى طائفة من القرشيين المشركين يقطعون على النبي ﷺ طوافه، ويأخذون بمنكبه، ويلوون ثوبه حول عنقه، فالتزمه أبو بكر من خلفه وهو يقول: "أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم... وعيناه تهملان حتى خلّوا سبيله".

وكان النبي ﷺ يعجبه الثناء على أبي بكر بأسبقيته فقد سأل الشعبي ابن عباس: أي الناس كان أول إسلاماً؟ قال: أبو بكر. أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

(١) الرياض النضرة ١/٩٣.

خـــير البريـــة أتقاهـــا وأعـــدلها ... بعـــد الـــنبي وأوفاهـــا بمـــا حمـــلا
والثـــاني التـــالي المحمـــود مشـــهده ... وأولى النـــاس مـــنهم صـــدّق الرســـلا
وثـــاني اثـــنين في الغـــار المنيـــف وقـــد ... طـــاف العـــدوّ بهـــم إذ صـــعّد الجـــبلا

وتشير الرواية أن النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه حين سمع الأبيات، ثم قال: صدقت يا حسان. هو كما قلت[1].

وإذا كانت الخطبة تنعى على أولئك الغامزين في أفضلية أبـــي بكر وسبقه، وتقديم علي بن أبي طالب عليه، فهـــذا علـــي ﷺ يقـــر بفضله وسبقه، فقد جاء رجل إلى علي ﷺ فقال: يا أمير المـــؤمنين كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبي بكر، وأنت أسبق منه سابقة؟ قال علي: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتَهنّ، ولـــم أعـــتض منهن بشيء: سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم الهجـــرة، ومصـــاحبة النبي في الغار، وإقامة الصلاة وأنا يومئذ بالشعب، يظهـــر الإســـلام وأخفيه، وتستحقرني قريش وتستوفيه، والله لو أن أبا بكر زال عـــن مزيَّنه ما بلغ الدين العرنين، ولكان الناس كرعة ككرعـــة طـــالوت. ويلك إن الله ذمّ الناس، ومدح أبا بكـــر، فقـــال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فرحمة الله على أبي بكر.

وفي قول علي ﷺ ردّ جلي على أولئك الذين أطلقوا ألسنتهم فـــي الشيخين أبي بكر وعمر، فالصحابي الجليل الخليفة الراشـــد ابـــن عـــم رسول الله يقر لأبي بكر بفضله ويعرف له حقه وســـبقه، ويقـــدر لـــه صنيعه في الإسلام، ثم يأتي من غلّب الهوى على الشرع، واتبـــع مـــا تهوى الأنفس، فينال منه، إنهم ساء ما كانوا يعملون.

---

(١) الرياض النضرة ص (٨٥-٨٦).

ولما قبض النبي ﷺ اضطرب حبل الدين، ومرج عهده، وماج أهله، وبغي الغوائل، ونصبت الحبائل،وظنت رجال أن قد أكشب نهزها، ولات حين الذي يظنّون، وبهذا تختصر عائشة الموقف الخطير الذي تعرضت له أمة الإسلام بعد وفاته ﷺ، فهو موقف لم يصمد فيه العرب الذين آمنوا نفاقاً، أو استسلاماً لأمر قد غلب واستتب، فأرادوا نقض العهد، وأحاط مكرهم بالإسلام وأهله، ظناً بأن الفرصة قد حانت وساعة الظفر قرب أوانها، والأمر ليس كما ظنوا، ولات الساعة التي يظنونها.

الأمر مختلف، فلن يكون تحقيق مرادهم سهلاً، ونيل مطلبهم ميسراً، والصديق بين أظهرهم، فقد وقف من المرتدين والمنافقين موقفا حازماً، شمّر فيه عن العزم إلى ردّهم إلى حياض الإسلام والقضاء على شر فتنتهم، وتأهب لنصرة الإسلام حتى جمع قطريه، ولمّ شعثه، وأصلح عوجهم، وأقامه بجهاده المعلن على المرتدين في مواقعهم، حتى تفرق النفاق والمنافقون، وأزال عن الدين ما يخاف عليه، ورفعه إلى المقام المحمود له، وأراح الحق على أهله، وأعاد الزكاة التي منعتها العرب ثم ردّت إلى حكم الله وسنة رسوله في أهلها بقضائها على مانعيها، ووقى المسلمين القتل، وحقن دماءهم.

ولنا أن نتصور ما كان يلاقيه أبو بكر والصحابة الأجلاء في هذا الموقف الذي لا يقل في تكالب أهل النفاق والردة على الإسلام عن تكالب المشركين واليهود على الإسلام في عصر النبي ﷺ على اختلاف حال المسلمين بين ضعف في بداية الإسلام، وقوة ومنعة وقيام دولته في عهد الصديق.

وظل أبو بكر مجاهداً في سبيل الحق، ومناصراً له، عادلاً في ولايته رحيما بالمؤمنين، محققا في سيرته صورة المسلم الأمثل.

متأسيا بالنبي ﷺ خير تأس، يأخذ بالكتاب العزيز حكماً، ومناراً يرجع إليه في عامة تفاصيل حياته وخاصته.

وكان ﷺ يشعر بثقل الأمانة، وعظم المسئولية صب همّه على تحقيق العدل والنصف فيما حكم به المسلمين، ولا ينفرد برأيه واجتهاده، بل جعل الشورى مناره فيما ينوي فعله حتى يطمئن إلى ما يذهب إليه، وهي خطة اختطها في خطبته الأولى بعد توليه الخلافة حين صعد المنبر قائلاً في طمأنية المؤمن، وتؤدة الشيخ الجليل: "أما بعد فإني وليت أمركم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن، وسنّ النبي ﷺ السنة وعلّمنا فعلمنا، واعلموا أيها الناس: أن أكيس الكيس التقى، وأعجز العجز الفجور، وإن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. أيها الناس: إنما أنا متبع وليست بمبتدع، فإن أنا أحسنت قولي فأعينوني، وإن أنا زغت فقوموني أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"(١).

ويظهر شعوره بثقل الأمانة ووطأتها على نفسه في خطبته الأخرى: "أيها الناس لوددت أن هذا الأمر كفانيه غيري، ولئن أخذتموني بسنة نبيكم لا أطيقها، إن كان لمعصوماً من الشيطان، وإن لكان لينزل عليه الوحي من السماء"(٢).

ولا يزال أبو بكر عند بيعته مستقيلا لأصحاب رسول الله من بيعتهم إياه، روى أبو الجحاف قال: قام أبو بكر بعد ما بويع له ... فأقام ثلاثا يقول: أيها الناس قد أقلتكم بيعتكم، هل من كاره؟ قال: فيقوم علي في أوائل الناس يقول: لا والله لا نقيلك ولا نستقيلك. قدّمك رسول الله ﷺ، فمن ذا الذي يؤخرك. (أبو الجحاف هو داود بن

(١) الرياض النضرة ١/٢٥٤.
(٢) الرياض النضرة ١/٢٥١.

عوف البرجمي التميمي، مولاهم كوفي ثقة روى عن غير واحد من التابعين، وحديثه هذا مرسل من طريقين(١).

وهناك شواهد وأخبار كثيرة يسوقها المؤرخون في معرض حديثهم عن تعفف أبي بكر عن الولاية، وإبائه لها، لا ضعفاً وخوراً، وإنما تخلصاً من تبعاتها ومسؤلياتها الجسام، ولكنه صبر وجاهد، حتى لقي ربّه نقي السيرة والسريرة، لم يثلب في معدلته وسيرته، وحكمه وخلافته.

ولما دنا الأجل من أبي بكر لم يرعه الموت، ولم تشغله حشرجته عن أن يفكر في الأمة من بعده، فأمضى بالخلافة من بعد لنظيره في العدل وشقيقه في السيرة عمر الفاروق، فلما حضرت الوفاة دعا عمر فقال: اتق الله يا عمر ... ثم أخذ يوصيه بتقوى الله والعدل، وحسن العمل، ولزوم طريق الحق وأهل الجنة....

وروى محمد بن سعد بإسناده أن جماعة من الصحابة دخلوا على أبي بكر لما عزم على استخلاف عمر فقال له قائلون منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا، وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني. أبالله تخوفونني خاب من تزود من أمرك بظلم، أقول اللهم إني أستخلف عليهم خير أهلك، أبلغ عني ما قلت لك من وراءك ثم اضطجع، وجاء عثمان بن عفان ﷺ فقال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني أستخلف بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا. فإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذاك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما

(١) الرياض النضرة ١/٢٥٢.

اكتسب، والخير أردت، ولا علم لي بالغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون....[1].

وأبو بكر ﷺ يعلم حق اليقين أن عمر خير خليفة بعده لما عرف فيه من خلال يحبها الله ورسوله، ولما عهد فيه من حسن سياسة وقوة شكيمة. وقدر أن حاجة الإسلام وأهله تحتاج إلى مثل عمر ﷺ في قوته وشخصته البارعة في قيادة دفة الخلافة، فالإسلام بدأ يخرج إلى آفاق جديدة، خارج حدود الجزيرة، وينفذ إلى قلوب جديدة في أصقاع بعيدة، والممالك على وشك الدخول إلى عالم الإسلام والأمصار الإسلامية قيامها بدأ وشيكاً، فلو تولى الخلافة رجل غير عمر لتغير حال الإسلام ولربما ضعف هذا الزحف الإسلامي الذي تجوب جيوشه الأرض وتدك حصون الكفر، وتبلغ دعوة الحق.

إذن اختيار أبي بكر كان صائباً، فقد تولى عمر الخلافة وسار على منهج النبي ﷺ، وامتثل سيرته، وطبق وصية أبي بكر في شخصه وسيرته وفكره السياسي والعسكري، وأقام دولة على أسس ثابتة مستمدة من أحكام الإسلام وغايته المثلى، ففتح البلدان، وشرّد الشرك وفرّق أهله وظهرت في عهده خيرات الأرض بعد أن امتد إليها نفوذ المسلمين، وردّ ريعها على المسلمين، ودانت للمسلمين بلاد كسرى وقيصر وعظم سلطان الخلافة، وازينت الدنيا بتلك الثروات الباهرة، والخيرات الفاتنة، ولكنها لم تبلغ من نفس عمر رضي الله عنها مبلغا، فقد زهد فيها، وحكّم فيها الحكم الإسلامي، ونظر إلى الدنيا الفانية نظرة حبيبيه السابقين عليه النبي ﷺ، وأبي بكر ﷺ، فصدّ عن الدنيا وزخرفها، وأبى أن يسلم نفسه لإثرائها، حتى رحل عنها نقيا، تقياً، زاهداً شهيداً في سبيل الله.

---

(١) الرياض النضرة ١/٢٦٠.

ثم تقبل عائشة رضي الله عنها إلى مخاطبيها وتقرع أسماعهم بذلك السؤال المفحم "فأروني ما ترتؤون وأي يومي أبـــي تنقمـــون؟ أيوم مقامه إذ عدل فيكم؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟.

وتلك خاتمة بليغة أوجزت ما أرادت أن تصل إليه مـــن خـــلال وصفها الدقيق لشخصية أبيها وخلافته واستخلافه لهم الذي لم يخرج عما أراده أبو بكر، وسار بموكب الخلافة على النهج ذاته الذي عرفه المسلمون في عهد سلفه، وتقبل على الناس بوجهها وتقول: أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا؟ قالوا: اللهم لا.

وهو إقرار من الصحابة ومعاصريها ومن عاش عهد الخلافـــة الأول بصدق مقولتها، وسلامة منطقها، ودحض حجج المنكرين ورد كيد الكائدين.

المبحث السادس: البناء والأداء.

النص الخطابي يختلف في بنائه عن النص الشعري أو النصوص القولية الأخرى، فقد اهتم النقاد منذ العهد القديم بتقسيمات الخطبة وأركانها وأولوا كل قسم منها حقه من الدراسة لتظهر الخطبة في حلّة أقرب إلى الدقة والكمال، ولتعين الخطيب وترشده إلى ما يكمل به خطبته ويرفعها في المقام البياني، ويجعل السامعين أكثر فائدة منها، وقبولا لمضامينها.

وأقسامها عند المتقدمين من أمثال أرسطو أربعة:

أقسام هي مقدمة الخطبة ويليها عرض الموضوع ثم عرض البراهين والأدلة ثم ختام الخطبة بنتيجة يريد الخطيب إقرارها في أذهان الناس واستمالتهم إليها.

وأكثر الباحثين يجعل أجزاء الخطبة ثلاثة فقط، هي: المقدمة والعرض والنتيجة.

ولعل هذا التقسيم أقرب التقسيمات إلى الخطبة التي بين أيدينا؛ إذ تقدم عائشة رضي الله عنها لخطبتها بمقدمة تلائم غرضها، وتعرض لموضوعها في إيجاز دقيق دون عرض للأدلة، وتفنيد لحجج الخصوم ودحضها، سوى ما تعرضه من حوادث تأريخية كما رأينا في مبحث: باعث الخطبة وفكرتها، ومادتها وموضوعها.

وسوف نقف عند كل جزء من الأجزاء الثلاثة نعرضه مع ما تتطلبه من قيم خطابية وفنية، وعناصر بنائية يتطلبها، تبعاً لموضوع الخطبة وموقف الخطيب، وتلقي السامع، وما ينشده الخطيب في كل ذلك.

أولا: المقدمة:

تحظى المقدمة وبداية الخطبة بعناية بالغة لدى الخطيب والسامع على حدّ سواء، فهي مفتاح قلوب السامعين، وإثارة أسماعهم، وتهيئتهم للإقبال على الخطيب والاستماع إليه، وهي

بالمنزلة نفسها عند السامعين الذين ينظرون إلى أهمية الخطبة من خلال استهلال الخطبة بما يشوقهم لسماعها أو الإعراض عنها.

فالمقدمة عنوان الخطبة وتمهيد للفكرة،و"يشترط فيها أن تكون جذابة مشوقة،تشد عزائم المتلقين للسماع،وتبعث فيهم النشاط والحمية"(١).

وإذا قرأنا خطبة أم المؤمنين التي بين أيدينا بحثنا عن هذا المقياس النقدي في بنائها، نجد أن المقدمة لم تستهل بمقدمة طويلة. وتبدأ بتوطئة تتدرج بالسامعين في رتب الموضوع والمعاني وإنما بدأت مألوفة الاستهلال، واقتدت عائشة رضي الله عنها بسنة النبي ﷺ وخلفائه في تقديمهم لخطابتهم، بذكر الحمد والدعاء والصلاة على النبي ﷺ، وتلك وقفة موجزة تعود وجازتها إلى الحضور الذهني والعاطفي عند المتلقي الذي غرس القبول في ذاته لما يتشوق سماعه عن رسول الله ﷺ، وما يتطلبه الحدث فيما يلقيه خليفة رسول الله على أسماع المؤمنين في سلمهم وحربهم، أما عائشة هنا فقد أوجزت في مقدمتها لجلال الحدث الذي بعث على إنشاء خطبتها. ولعل تزاحم العوطف واندفاع المشاعر أدى إلى هذا الاقتضاب المقصود في بداية الخطبة، لتدلف رضي الله عنها إلى موضوعها سريعاً باستفهام تعجبي دلالي مؤثر "أبي وما أبيه!" تردفه بقسم مؤكد لانتفاء ما يطلبه الخصوم، ما يرونه المناوئون، "والله لا تعطوه الأيدي" ثم تتبع ذلك بسرد صفات الشموخ في شخصية أبيها "ذاك طود منيف، وظل مديد، هيهات بعدت الظنون".

وقد استطاعت عائشة -رضي الله عنها- إلى مزج مقدمة خطبتها بموضوعها. وتداخل عناصرها حتى لتحس أن المقدمة جزء من الموضوع غير خارجة عنه، ولا تقدم شيئا يتوصل به إليه، لتمام

(١) الخطبة وإعداد الخطيب للدكتور عبد الجليل شلبي ص (٥٨)، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م.

امتزاج المدخل في صلب موضوع الخطبة في موضوعها الأصل وهو الدفاع عن أبي بكر، ورسم صورة واضحة الملامح لمن ينكره، أو لم يعرف عنه ما يجعله يتنكر لأفضليته.

إنها مقدمة موفقة لخطبة شديدة الوقع في أسماع المخاطبين، تستنفر طبائع الحق في نفوسهم ليقروا بالحق، ويتنكروا للباطل. وهي من جانب آخر عظيمة الشأن لعظم شأن ما تناولته من جوانب مهمة في حياة أبي بكر، ودفع الكل لكل ما يمكن أن يستقر في أذهان ونفوس المشككين أو الأدعياء ممن زين لهم الشيطان سوء عملهم.

ثانياً: العرض:

وعندما تصل عائشة رضي الله عنها إلى العرض الأساس في خطبتها، الموضوع الأهم تندفع في صلابة وقوة بيان، وبلاغة عظيمة لتقرر عدة حقائق تتلخص فيما يأتي:

١- ذكرت صفة أبي بكر في جاهليته، وعددت ما كان له من علو المنزلة بين القرشيين فهو فتى قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلُمّ شعثها".

وتلك إشارة موفقة من أم المؤمنين عائشة إلى مكانته في سابق عهده بالإسلام، وما ناله رفعة ومرتبة عالية في جاهلية العرب وبين قريش خاصة وهو أمر يقر أحقيقة وفضل ما ناله في الإسلام وما أهله لما آل عليه حاله في عهد رسول الله ﷺ، وإشارة رسول الله إلى خلته وصحبته وفضله بسبقه ونصرته، وأحقيته بالإمامة والصلاة في حياته ﷺ، وخلافة رسول الله للمسلمين بعد موته ﷺ. ونلتمس من هذه الإشارة المنطق السديد الذي اتصفت به عائشة رضي الله عنها في دفاعها عن أبيها، ودفعها تهم المبطلين والمنكرين.

٢- صورت حاله عند إسلامه فقد أشارت فيما سبق إلى سبقه العرب إلى الإسلام ونصرة رسول الله ﷺ "أنجح والله إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم، سبق الجواد إذا استولى على الأمد".

٣- فبعد أن ذكّرت القرشيين والعرب كافة بما كان له ﷺ من علو الرتبة وما حظي به في الجاهلية، عرّجت على موقفه عند إسلامه، وصلابته في دينه حيث "استشرى في دينه، فما برحت شكيته في ذات الله حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون".

وكان إلى جانب ذلك عظيم الخشية لله لما عرف من الحق، فهو "غزير الدمعة، وقبذ الجوانح شجي النشيج" تنهمر دموعه إجلالا لله وخوفا من وعيده، فينبعث البكاء حزينا يحطم أضلاعه الدقيقة لتولي زفرات نفسه العليلة.

وقد أدى حاله ذلك إلى اجتماع نسوان أهل مكة وولدانهم وسفهائهم حوله بين متعجب لحاله ، وساخر من فعله، وانعكس موقفهم واجتماعهم على رجالات قريش إدراكاً لخطر تأثيره في نفوسهم: لأنه حق، وسيؤمن به أهل مكة باستشهار خيره بين بيوت المكيين، وهذا ما لا يريده عظماء قريش. فحاربوا أبا بكر باجتماعهم على تفريق جموع الملتفين حوله، وإبطال جوار ابن الدغنة له، الذي أمّن أبا بكر، وهيأ له ذلك الفعل الذي يخشون خطره، ويدركون أثره في حياة أهل مكة وشبابها، وقد كنّت بإيجاز شديد عن ذلك الموقف الطويل والحرب الشرسة ضد الحق وأهله بقولها "وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وامتثلته غرضاً" فما أبرعها من بلاغة مؤثرة، موجزة العبارة عميقة الأثر في هذا المشهد التصويري البديع في هذه العبارات القليلة الألفاظ، الواسعة المعاني.

٤- أرسلت القول بعد وصفها الدقيق لحاله عند إسلامه وموقف القرشيين منه لتصف أثر فعلهم فيه "فما فلّوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومضى على سيسائه" وهي كسابقتها كنايات بديعة عن مواقف متضاربة بسطتها كتب السنة والسير في أحاديث وأخبار مطولة ولكنها البلاغة الرائعة.

ومضى على سياسته حتى ظهر الدين ورست دعائمه، ودخل الناس فيه أفواجا، فقد ظل أبو بكر رضي اله عنه مجاهداً في سبيل الله مؤمنا صادقاً، وصحابياً مناصراً، وصديقا صادقاً، قريبا من رسول الله ﷺ في مواقفه وجهاده، يفضي إليه رسول الله في حال السلم والحرب بما ينوى من فعل، ويتخذه مرافقاً في كل مواقعه وأحواله. أليس هو خليله "لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا"، ويعلن رسول الله ﷺ في مواقف كثيرة عن حبه لأبي بكر، وعظم منزلته لديه، وينهى المسلمين عن أن يسوءه أحد في أبي بكر.

وظل ديدن أبي بكر على هذا النهج حتى توفي رسول الله واختار له الله ما عنده، وارتجت الأرض بخير موته ﷺ، ولكن أبا بكر ظهر رابط الجأش، قوياً متزناً، تجتمع الأمة على رأيه يتولى أمر المسلمين خليفة لرسول الله ﷺ، ولم يضره اضطراب أمر العرب وما وقع من المرج والهرج في صفوفهم، وصفوف المسلمين، وظهر الارتداد، وارتدت العرب، وظن قوم بما زينت لهم نفوسهم أن فرصتهم في ترك ما قدموه لرسول الله من زكاة وولاء وطاعة دين قد انتهت، وولّى عهدها، ولات حين الذي يظنون، وأنّى والصديق بين أظهرهم.

قالت عائشة رضي الله عنها هذه العبارة المفعمة بالإيمان، والمليئة بصدق المعرفة بشخصية الصديق الذي عرفت العرب صدقه في دينه، وقوة إسلامه وصلابته في الحق فيما مضى من عهده.

٥- بينت عائشة رضي الله عنها موقف أبي بكر من المرتدين، وما كانت من إرادته في حربه لهم، حين ظهر له نكوصهم، ونقضهم عهداً أبرموه لرسول الله فقد قام حال ذلك حاسراً مشمّرا عن ثوبه، فرجع حاشيته وجمع قطريه بحزم في الأمور، وجدّ في تحقيق الغاية، وشمر لنصرة الدين حتى جمع الإسلام والعرب

عليه وعالج الصدع بطبه ودوائه، والعوج بأوده وثقافه، وعاد للإسلام ما كان سابق عهد في زمن رسول الله ﷺ بقمع المرتدين، وحرب أهل النفاق حتى طهر جزيرة العرب مما أصابها، وباءت إلى نقاء العقيدة، ورابطة الدين.

رسمت سياسته الباهرة، بعد أن قضى على رؤوس النفاق، وجموع المرتدين، لتعود شوكة الإسلام قوية، وقوته ضاربة، وقد حقق ذلك بحربه المرتدين، فأسلمت العرب بخشيتها، واطمأنت الأرض في ظل قوة الإسلام الجديدة المستمدة من قوة دين الله في صورة أبي بكر الصديق الذي أعاد إليه الأمن، ورفعه وأراح الحق بعد أن زعزعه المبطلون، وظل مجاهداً يسير الجيوش ويمد القوافل المجاهدة بسدده ورأيه، منتهجا في ذلك سيرة الرسول المصطفى ﷺ، حتى حضرته منيته، مودعاً الدنيا بقوله "اللهم أحيني مسلما وتوفني مسلما وألحقني بالصالحين" وفي اللحظات الحرجة التي يعالجها من اشتد به مرض الموت، وشعر بساعة فراق الدنيا، لم ينس أبو بكر ما للمسلمين من حق عليه، فيودع دنياهم وقد تحلل من الأمانة، ألا وهو إسناد أمر المسلمين إلى رجل قريب من سياسته بعدله وحزمه، ورحمته بالمؤمنين، فاختار لهم عمر بن الخطاب لما فيه من حسن صحبته لرسول الله وثنائه ﷺ وحبه له، وتجرده من حب الدنيا، وحربه على الكفر وأهله، وبغضه للباطل وسبله، فكان اختيارا مسدداً من الخليفة الصادق، أن يقع على الخليفة الفاروق، وكان له ما رأى فيه، وصدق ظنه فيه.

٦- وصفت الخطبة موقف عمر الفاروق ﷺ حال خلافته فقد احتمل ما وكل إليه من الأمانة متبعا في ذلك سيرة الخليفة الأول أبي بكر، وكتب الله في عهده فتوحات الإسلام الواسعة في أصقاع الأرض ومختلف الممالك، وقضى على الشك وفرق جيوشه شذر

ومذر، وترسم ﷺ في خلال ذلك صوْرة بديعة لما قام به في الأرض المفتوحة، حين استقرت في عهده، ومصرت الأمصار وعاد إلى الناس أمنهم، وسار فيهم العدل العمري، حتى كثرت خيرات الأرض وعظمت الثروات، وجبيت الزكوات، ودفعت الغنائم، وخراج الأرض، ففاضت الأموال وقسمها عمر في المسلمين على ضوء ما شرع في كتاب الله وما رسمه رسوله الكريم، ولم تشغله عن دينه، ولم تطمعه في نفسها، ترأمه وتعطف عليه، وتحلو في عين غيره ، وتطيب بها النفوس، وتعافها نفسه، وتصلد عنها، ويصد عنها الفاروق، بعزيمة المؤمن الزاهد المجاهد حتى ظعن عن الدنيا، ولم يجد ورثته من بعد ما يسد رمقهم بعده، ويرد بعض ما أعطي إلى بيت المسلمين تبرأةً للنفس، وحفظاً للأمانة، وفي ذلك روايات كثيرة تفيض بها كتب السير يعجب المرء من تلك النفوس التي باتت ترجو الآخرة وتعمل لها، وتصد عن الدنيا وهي مقبلة حسن المرأى قريبة المنال.

وبعد فتلك المعاني وجملة الأفكار التي عرضت لها عائشة في خطبتها، ومن المبهر في قولها وعرضها أنها -رضي الله عنها- لم تعمد إلى السرد الإخباري المجرد، وإنما ألبست معانيها صورة بلاغية تستعير المعنى حيناً وتؤديه الألفاظ البديعة حيناً آخر ، وتكني عن المعنى في صورة ثالثة، وتحمل القول حيناً، وترادف بين جملها المقتضبة في عبارتها، المفصلة في محتواها ومبناها.

ثالثا: الخاتمة:

اختارت عائشة لخطبتها البليغة خاتمة تعدلها عظمة وإيجاز، وقوة في البيان والإقناع ففي نهاية القول ألقت على أسماع جماهير المتلقين جملا إنشائية قوية الإحكام في نهاية خطبة عظيمة في غرضها، قوية في إيجازها، فتطلب أروني ما ترتؤون؟ بعد الذي بينته لكم من

حال أبي بكر في حياته كلها، وما كان من حاله عند وفاته، وما وفق إليه حين اختار خليفته؟ وهي توحي بذلك إلى اعتراض بعض الصحابة على اختياره عمر خوفا من شدته وحزمه الذي عرف به إشفاقا على المسلمين، ولكنها إرادة أبي بكر الصادقة، ومعرفته بصاحبه العدل الرحيم المؤمن القوي.

ثم أقبلت على أبنائها المسلمين بسؤال ليس له إلا جواب فرد "أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا" فما كان جوابهم وقد وضح الحق، وفلج الباطل وظهر القول الفصل إلا أن قالوا: اللهم لا.

وهكذا نشهد ختام هذا الخطاب البلاغي الديني بصورة تفيض بالقناعة ببلاغة عائشة ودقة عبارتها، وحسن منطقها كما قال: الأحنف بن قيس أحد بلغاء العرب: "سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم ... فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة".

المبحث السابع: الأسلوب.

الأسلوب هو طريقة أداء المعاني وعرض الأفكار التي يتضمنها النص الأدبي، أو هو مجموعة الوسائل التعبيرية التي يطرح عبرها الأديب الأفكار والمعاني.

وتتجلى أهمية الأسلوب في أنه القالب الذي تصب فيه الأفكار والمعاني لتصل عبره إلى الأذهان والقلوب، ولولا الأسلوب لما تمكن أي إنسان من نقل ما يدور في خلده من أفكار إلى غيره من الناس.

والخطابة الفن القولي الأول من فنون القول، بل عمدة هذه الفنون، لسبقة الشعر والكتابة في التعبير والتصوير في المواقف التي تستدعي بلاغة وقوة في الأداء لإفهام المخاطب والمتلقي المراد. بإمتاعه بما ينقل إليه المتحدث رؤاه الجمالية، وبراعته في تخيل المعاني وتصويرها، يحتاج فيه إلى رتبة من البلاغة وصلة من جمال القول، تظهر في الأسلوب المعبر به، فليست البلاغة "أن تفهم المعنى فحسب، وإلا لتساوت الركاكة والتعبير والإشارة، والجيد والرديء. والعامي والفصيح، وإنما البلاغة رتبة فوق إفهام المعنى، رتبة سمتها الامتياز في التعبير، ومطابقته للحال، وأن يضفي الخطيب من أسلوبه على معانيه حلة من نور، ليتسنى للسامعين أن يتملوا معه جمال رؤاه وبراعة خياله".[1]

وبقدر ما يكون الأسلوب قوياً مؤثراً وواضحاً يكون تأثيره في النفوس واستيلاؤه على الأذهان والقلوب كبيراً، وبقدر خلوه من القوة والجمال والوضوح يظهر ضعفه تأثيره في النفوس، وأدى إلى نفور الأسماع وسآمة القلوب.

---

(١) فن الخطابة للحوفي، ص (١٤٣). طبعة دار نهضة مصر ١٩٩٦م.

والمتكلم مهما كان شأنه سواء أكان خطيباً أم شاعراً أم أديباً لا غناء له عن الألفاظ والتراكيب التي تنقل أفكاره ومعانيه وعواطفه إلى أسماع الآخرين.

وتزيد الخطابة عن سائر الفنون "إنها الفن العملي، الكامل؛ لجمعه -في الإلقاء- بين شخصيتي الخطيب الحسية والمعنوية. ولاستخدامه جميع مواهب السامعين؛ فإن الخطيب يستخدم جسمه في الخطابة، فيشير بيديه ويحرك رأسه، ويُشَكِّل أسارير وجهه، وكل هذه الحركات عنصر هام في التأثير الخطابي.[1]

وتتشكل الأدوات الأسلوبية في الفن الخطابي في عدة صور منها الألفاظ القوية والمؤثرة، والعبارات المرسلة أو المسجوعة أو المزدوجة، ومنها التكرار المعنوي بإيراد الفكرة في عدد من الجمل، وتنويع الأسلوب بين خبر وأمر ونهي واستفهام تعجبي وإنكاري، لئلا يكون الخطاب رتيباً، وليمثل الانفعالات اللازمة للخطابة، التي تمتلىء بها نفس الخطيب.[2]

وهذا ما يجعل أسلوب الخطابة منوعاً، يجمع بين تقرير الحقائق، وإثارة العواطف فيستخدم الفكر والوجدان، وينفذ منهما إلى الإرادة يدفع بها إلى عمل من الإعمال، فليس الأسلوب الفني هو التعبير الصحيح عن الفكرة، وإنما هو التعبير عن فكرة تدفعها عاطفة فيه شخصية الأديب وخصائصه.[3]

ونجد الخطيب الماهر هو من يتقن أداءه الأسلوبي بالتحقق من اكتمال شخصية الخطيب، في لقائه بجماهيره وصورته المعبر،

---

(١) الأسلوب لأحمد الشايب، ص (١١٨). مكتبة النهضة المصرية، مصر. الطبعة التاسعة، ١٩٩٥م.

(٢) السابق ص (١١٨).

(٣) ينظر: فن الخطابة للحوفي ص (١٤٤).

وجرسه وإيقاعه المصور، في إلقاء يوحي بجلال موضوعه وأهميته، فهو يتنخل من معجمه اللفظي ما يعينه على تصوير معانيه، ويعبر عن عاطفته ويقنع جمهوره بفكرته، وينتظم كل ذلك في نسق ملائم للمقام.

وهذه صفة عامة في الفنون القولية، يحرص على الاحتفال بها وتقديرها الكاتب والشاعر والخطيب على حدّ سواء، فالأسلوب عند الأديب عامة ما هو إلا نتيجة طبيعية لمواهبه وصورة لشخصيته. وإذا لا يمكن أن يكون صادقاً، قوياً، ممتازا، إلا إذا استمده من نفسه. وصاغه بلغته وعباراته، دون تقليد سواه من الأدباء؛ لأن كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه، تبين طريقة تفكيره، وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها، وطبيعة انفعالاته، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب"[1].

وعند دراسة أي نص أدبي سواء أكان خطبة أم رسالة أو قصيدة، فإن دراسة المظهر الأسلوبي للنص هو العلامة الفارقة في استبصار النص، ووعيه، فلن تجد أديباً إلا وقد عني بمعجمه اللغوي. ومفرداته التأثيرية الشعرية في الشعر، والتعبيرية المؤثرة في النثر. وهكذا في الجمل والتراكيب والبناء، وسائر الأدوات التي يوظفها المتكلم في نصه وإبداعه الأدبي.

والنص الذي بين أيدينا من أكثر النصوص، احتفالاً بالأسلوب الأدبي البليغ من جهة، والأجود روعة من جهة أخرى.

ولعل من أسباب تميزه في فن الخطابة هو امتلاك الخطيب (عائشة رضي الله عنها) أدوات الخطيب المفقود، وتمكنها من ناحية الأدب، وجمال المنطق، وفصاحة اللسان، ويظهر مدى ارتضاعها هذه

(١) الأسلوب ص (١٣٣-١٣٤).

البلاغة من بيئتها الفصيحة،.واكتسابها مهارة الأداء البليغ من ثقافتها المكتسبة من منبع الفصاحة -رسول الله ﷺ-، وقد أوتي جوامع الكلم، وإفادتها مما برز لديه من بلاغة قوله، وفصاحة لفظه، ورونق عبارته، ودقة أدائه، وقلة تكلفه، مع امتلاكه ناصية القول، ووعيها بمقومات الفن الخطابي".[1]

ونستطيع أن نقف بجلاء عند خصائص الأسلوب في خطبة عائشة رضي الله عنها متتبعين عناصره وأهم معالمه على النحو الآتي:

أولا: الألفاظ.

الخطيب الجيد، من يوفق في اختيار ألفاظه، وانتقاء أحسنها، موافقا لغرض الخطبة وموضوعها، ليوازن بين المعنى وما يحتاجه من الألفاظ، و"يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني".[2]

وقد أجادت الخطيبة هنا في هذا الجانب فإن المدقق في الألفاظ الواردة في خطبتها، يجد أثر الاختيار البليغ للكلمات، وهو ما أمدّت به الطبيعة الفطرية للخطيبة إذ استقت ألفاظها مما عرفته العرب والسامعون من ألفاظ فصيحة، ولم تلق على أسماعهم لفظاً متكلفا، ولا متعسفاً، وبهرتهم بذلك الانتقاء لما جاء على لسانها من قول بديع، وجاءت ألفاظها في ضوء ذلك تتسم بعدة سمات، منها:

أ- الفصاحة كما تقدم وهذا أمر مسلم به في عصر الفصاحة والبيان، وليس بدعاً أن تكون عائشة رضي الله عنها خطيبة بليغة العبارة، فصيحة الكلمة، فتلك بيئتها، ومنها يؤخذ البيان وتستقى البلاغة والفصاحة.

---

(١) النثر الفني (مي خليف) ص (٩٣) طبعة دار قباء، مصر.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٣٩، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، الطبعة الرابعة.

ب- دقة اللفظ في أدائه للمعنى، وقيامه بأعباء المعاني الكثيرة، فتجد ألفاظاً نحو "غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجي النشيج، امذقر النفاق، انتاش الدين فنعشه، بخع الأرض فنخعها، يصلد عنها" لا تعبر عن المراد، وإنا احتوت بإيحاءاتها معاني أخر، واستوعبت دلالات بعيدة تستثير الخيال، فتحققت بها الدلالة الدقيقة على المعنى، ونالت حظاً وافرا من الجمال اللفظي بما أودعت من جوانب الدلالة الإيمانية، والبيانية المجازية من جانب آخر.

ج- عذوبة اللفظ التي انتظمت الألفاظ منذ الوهلة الأولى، وقد يبدو ذلك غريباً عند البعض لما اكتسبت به الألفاظ من الغرابة الظاهرية فهي من الألفاظ التي تحتاج إلى بحث وتبيين لمعانيها، إلا أننا إذا أدركنا مستوى المخاطبين، ومستوى اللغة في خطابهم، ووازنا بين ذلك، وبين تلك الصورة اللفظية التي جاءت بها الخطبة. أدركنا أن العذوبة تكمن في ألف أسماع المخاطبين لتلك الألفاظ. وهم الذين يتذوقون هذا النوع من الإيقاع اللفظي البديع.

ونضيف إلى ذلك ما حوته من ألفاظ أخرى توسمت بالوضوح والجلاء، مما يقرب معناه، مع احتماله الصورة المجازية البديعة نحو قولها "فتى قريش ناشنا وكهفها كهلا، يريش مملقها، ويلم شعثها" وقولها "وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت قسيها، وفوقت سهامها، ... فما فلّوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة..." وهكذا في عبارتها "وأنى والصديق بين أظهرهم" فقام حاسراً مشمِّراً، فرفع حاشيتيه، وجمع قطريه، ولم شعثه بطبه، وأقام أوده بثقافه".

فإنك تجد أن جملة من الألفاظ في العبارات السابقة واضحة المعنى في دلالتها الأصلية، واكتسبت الوضوح والعذوبة في الاستعمال، من جهة اشتراكها في التركيب الفصيح الذي تحقق في تأليفه بالتناغم والتناسق والتلاؤم بين تلك الكلمات؛ فكل لفظ وضع

في مكانه الذي يبتغيه منجذب إلى إلفه الذي يطلبه فلا تنافر ولا تعقيد . مما يسيء إلى المعنى أو يضعف التركيب، ويبدو ذلك جليا فيما تقرأه من قولها في وصف أبيها بصفات تجتمع في المؤمن الصادق "كان والله غزير الدمعة، وقيذ الجوانح شجي النشيج" ثم وصفت رجالات قريش الباغية وموقفهم من الصديق، أكبرت قريش اتخاذه بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون "فأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وامتثلته غرضاً، فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة...".

فإننا نتأمل تآلف الجمل وعذوبة ألفاظها، وما يتبعها من مودة وقرابة، وتشابه وترابط، ووضوح معانيها بتجاورها في تركيب سلسل تتعاضد ألفاظه في التعبير عن معناه في يسر وسهولة. وستعرض لتلك الجمل الموقعة في تأليف الكلام عند الحديث عن العبارة.

د- فخامة الألفاظ. فقد استعملت أم المؤمنين في هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة والألفاظ الضخمة الموقعة توقيعا فخماً يملأ الأفواه قوة وإيقاعاً مجلجلاً ويشير ذلك إلى علمها باللغة ومفرداتها، صعبها وسهلها، وليس ذلك بمستغرب منها، ويبدو أن عائشة رضي الله عنها آثرت أن تسوق في خطبتها هذا الحشد من الألفاظ، لتخرج خطبتها في "صورة من الشدّة والصلابة والأسر؛ لتسترعي انتباه السامعين، وتقرع أسماعهم وبصائرهم بهذه القدرة الباهرة في القول، والبلاغة الظاهرة في الخطابة، ورغبة في مفاجأتهم بما يبهرهم من الإحسان، والعلوم بما يقهرهم من الحجة، ... ورميهم كما شاءت بصم الجنادل، فتضيف إلى شخصيتها عاملاً آخر، يضاعف مكانها من نفوسهم، ويبسط سلطانها عليهم، فتصل

إلى ما أرادت من طريق قريب وعلى أحسن وجه، فمما لا شك فيه أن قوة الشخصية والمقدرة الخطابية تتفاعلان وتتعاونان"[1].

ونلحظ شيئاً آخر في هذا الاستعمال الدقيق للألفاظ في أدائه وفخامته وجزالته ومواءمته للمعنى، أن عائشة رضي الله عنها- أدارت معانيها في نفسها، واختارت لها من الألفاظ أشباهها. واستحضرت في ذهنها الصور والتشبيه والاستعارة وما يلائمها[2]. وقد ساعدتها مقدرتها الخطابية على الإفادة من المعجم اللفظي والبياني وعلى النجاح فيما قصدت إليه من حشد هذه الألفاظ والعبارات التي أعدتها وزورتها في نفسها قبل إلقائها على أسماع مخاطبيها.

ثانياً: العبارات والتراكيب.

يجد المتأمل للخطبة أن سمتها القوية التي اتسمت بها هي صحة التأليف والوضوح والبعد عن التعقيد ودوقة تعبير جملها عن معانيها في جلاء ونصاعة وبيان، وليس أدل على ذلك من أن القارئ يتنقل في روضة الخطبة يستروح عبقها وجمالها الأسلوبي، فلا يجاوز عبارة بديعة بليغة تستثير في نفسه شعور الإعجاب والإثارة. حتى تردف الخطبة بعبارة أخرى تليها لا تقل عنها في إبداعها وإغرابها، وجمال تركيبها، وحسن منطقها.

وإذا أردنا أن ندقق في تراكيب الخطبة وعباراتها، لنستجلي خصائصها التي منحتها الفصاحة، وكستها الأناقة وعلو الرتبة في البلاغة، يمكن أن نحدد ذلك فيما يأتي:

١- الوضوح وجلاء المعنى: ويظهر ذلك في اتضاح مرادها وقربه

---

(١) الخطابة في صدر الإسلام لمحمد طاهر درويش ١/٤٠١. طبعة دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م.

(٢) ينظر: المصدر السابق ١/٤١٠.

من الذهن حين قراءته، فالجمل تتعاضد في ترادفها في بيان المراد، وتجلية الغرض المقصود، فإذا كانت العبارة التي تبدو غامضة في ذاته لصعوبة لفظ، أو غرابته، فإن ما يليها من الجمل المرادفة لها في نوع من الازدواج البديع، يوضح معناه ويكشفه للسامع والمتلقي عامة، فينفي عنها ما يتبادر إلى الذهن من بعدها وغموضها.

فأنت تجد أن قولها "فما فلوا لها قناة" يوضحه ما تلاه من قولها "وما قصفوا له قناة" ففلّ وقصف يتناوبان في الدلالة على الغلبة في الكلام، ذلك مع ما ناله المعنى من بديع القول في كنايتهما عن الغلبة، وهذا من حلل المعنى التي زادته بهاء وجمالاً.

وهكذا يمكن القول في "وأنى والصديق بين أظهرهم، فقام حاسراً مشمراً، فرفع حاشيتيه، وجمع قطريه، ولمَّ شعثه بطبّه، وأقام أوده بثقافه حتى امذقرّ النفاق بوطئه" فالجمل تتابع في سرد دقيق توظف في جملها لتوضح المعنى وتطرد الوهم بغير المراد، فأنت تجد أن "جمع قطريه، ولم شعثه بطبه، وأقام أدوه" عبارات واضحة جليلة، لا يعود وضوحها إلى ذواتها، بل يرجع إلى تآلفها في إيراد معنى واضحاً، تجليه وتحليه في الأذواق جملة واحدة دون عائق من غموض أو تعقيد أو إسفاف في العبارة يفسد المعنى ويبطلها في غير حاجة إلى الإطناب، وهذا أول ما يشترط في أسلوب الخطبة البليغة، فأول صفاتها أن يسابق معناها لفظها، ولفظها معناها، "فلا يكون اللفظ أسبق من معناه إلى قلبك، وبذلك تستحق الخطبة أن تتصف بالبلاغة"[1].

---

(١) السابق الصفحة نفسها، وأسس النقد عند العرب لأحمد بدوي، ص (٦٤٧). نهضة مصر، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤م.

والوضوح سواء أكان ناشئاً من وضوح الألفاظ أو جلاء المعنى في التراكيب يمنح الفكرة حسناً في مواقع الأسماء، لشدة إبانتها عن المراد الذي يسوقها من أجله.

٢- قوة العبارات وجزالتها: استطاعت عائشة -رضي الله عنها- أن تجمع في خطبتها جملة من العبارات القوية المؤثرة الجزلة ذات الإيقاع القوي، فجعلت الخطبة هيكلاً صلباً متماسكاً، وكأننا بأم المؤمنين قصدت ذلك قصداً في ظل الباعث على خطبتها التي تصور انفعالها، وقوة عقيدتها بما تذهب إليه، تقرع أسماع مخاطبيها بتلك العبارات الصم الجنادل المؤثرة لتغنيها عن سوق الأدلة والبراهين، ولتخرجها على هذه الصورة من الشدة وقوة الآصرة.

فعندما تريد عائشة أن تصور معنى قوياً جزلاً يصف قوة أبي بكر أو صلابته تختار له جملة رنانة، تخرج بوقعها الشديد في الآذان تشبه صليل السيوف، ورنين الرماح والقسي، توائم بين المعنى والمبنى كقوله عن أبيها "يرأب شعبها ... ثم استشرى في دينه ... فما برحت شكيمته" وغيرها من العبارات الفخمة التي تعدل المعنى قوة وجزالة.

وإذا وصفت حال الإسلام وتغيره بعد رسول الله وتلك حال مؤلمة مؤثرة في النفس اختارت له "اضطرب حبل الدين، ومرج عهده، وماج أهله، وبغي الغوائل".

وكل عبارة من تلك الجمل المتوالية تمثل ركناً في المعنى لا يحمله غيرها. وتقوي صورته، وتبعث على اكتماله في ذهن متلقيه. وهي مع قوتها وجزالتها سهلة مفهومة للسامعين، خالية من الإغراب والتعقيد، تمنح المخاطبين فرصة الاستماع، ولذة الاستمتاع بمتابعة الخطيب ومسايرته، وهذا من صفات العبارة الخطابية الجيدة.

ومن هنا يشير نقاد فن النثر الخطابي أن عبارات الخطبة إذا جاءت في ألفاظ وكلمات مؤثرة جزلة ذات إيقاع وجرس قوي، مؤلفة تأليفا حسناً، كست الخطبة قوة وتأثراً[1].

ومن سمات الأسلوب البارزة في هذه الخطبة الجليلة في موضوعها، وقيمتها الأسلوبية، ما عمدت إليه عائشة -رضي الله عنها- في أداء معانيها من استقاء مادتها اللغوية وتراكيبها البليغة، والاستعانة بها في تصوير الموقف، فأجادت استخدامها في مواضعها، وتصنيفها من خلال سردها للجمل.

الجمل المتوالية في صورة الماضي لتوحي بالبعد التأريخي لكل ما يسرده الخطيب في خطبته، وذلك من التوكيد المعنوي، الذي يقتبس البعد الزماني لتقرير حقائق لا تقبل الشك لدى المخاطب، وهي تنزله في كل أخبارها الواردة في خطبتها منزلة خالي الذهن من التصورات المعرفية، وتقرر ما تورده في حكاية الخبر مفترضة تصديقه، وإن أنكر البعض من مخاطبيها تلك الأخبار، أو لم يسلم بما توحيه من أحقية لأبي بكر فيما تذهب إليه عائشة -رضي الله عنها-.

ومن هنا -وفي ظل هذا- الإنكار المضمر في نفوس بعض سامعيها تعمد أحياناً إلى الأساليب المعنوية الأخرى بالاستفهام التعجبي والإنكاري "أبي وما أبيه" و"أنى والصديق بين أظهرهم" وقولها: "وأي يومي أبي تنكرون". أو يورده للتقرير في سؤالها "أنشدكم بالله هل أنكرتم مما قلت شيئاً". وهذا من فطنتها -رضي الله عنها- فكأنها تقول لهم: ارجعوا إلى أنفسكم، ثم انظروا ما قلت، وأخبروني عن موافقته الحق والصواب. وهي تعلم أنهم لن ينكروا مما قالت شيئاً.

---

(١) ينظر: الأسلوب لأحمد الشايب ص (١١٩).

٣- الانسجام والتآلف:

يتسم الأسلوب الخطابي الرفيع بحلاوة الانسجام وقوة الإيقاع فيما يلائم حركة الفكر ومستويات العاطفة في نفس الأديب والتي تسري إلى عواطف السامعين.

فانسجام الحروف وحلاوة جرسها، وائتلاف الكلمات وتلاؤم فقرها وإيقاعها، يكسو الخطبة جلالا وحسنا في عباراتها وأدائها[١].

ويظهر حسن الائتلاف بين كلمات وجمل خطبة عائشة -رضي الله عنها- في ذلك الانسجام البديع بين جملها المتوالية إذا ظهرت مترابطة متلاحمة تنبعث من قول الأديب لتؤدي معنى واحداً، أو معاني مختلفة، لن يجد المتلقي تنافراً أو تباعداً بينها.

فهي تؤلف في مجموعها جملة واحدة تتناغم في إيقاعها الحسن في الآذان، وتناسب فقرها طولاً وقصراً.

ونلحظ هذا جلياً في عبارات الخطبة من أول جملة فيها حتى خاتمتها، فعائشة -رضي الله عنها- تأتي بالجمل القصيرة المترابطة معنوياً، ينوع فيها بين الجمل المزدوجة وبين المسجوعة كما في قولها: "قرر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها" ونحو قولها: "فتي قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلمّ شعثها" و"حتى قاءت أكلها، ولفظت خبيّها" وقولها: "فأروني ما ترتؤون، وأي يومي أبي تنقمون".

فهي -رضي الله عنها- تسوق الجملة ثم تأتي بعدها بجملة أخرى تليها تعضدها في إيضاح معناها، وتتآلف معها في انسجام وتناغم في إيقاع وجرس مؤثر يجلب الأسماع. ويرتقي بمضمون

(١) الخطابة للحوفي ص (١٨٠).

الخطبة وأسلوبها، ويحقق لها الترابط، و الستلاحم بين أجزائها، وعناصرها.

وما لجأت عائشة -رضي الله عنها- إلى التكرار المعنوي في جمله المطنبة أحياناً في الخطبة إلا لتثبيت الأفكار في أذهان السامعين، وتمكينهم من فهم ما تلقي على مسامعهم من خلال تلك الجمل القوية المتلاحمة، فأوردت الفكرة الواحدة في عدة جمل، ويلحظ أنه على الرغم من تكرار الجمل وتعددها وإيجازها للمعاني الكثيرة، جاءت مشحونة بصور خالية بديعة، ترسمها ألفاظها بإيحاءتها نحو قولها مصورة ما صنعه أبو بكر في خلافته بجهاده المرتدين حتى أعاد إلى الإسلام حالته التي كان عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلما انتاش الدين فنعشه، وأراح الحق على أهله، وقرر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها".

وهي جمل توضح معنى واحداً هو استقرار دولة الإسلام بعد أن اضطرب حبل الدين، ولكنها توحي بصور مثيرة متخيلة عن جهاد عظيم لخليفة عظيم(١).

ثالثا: الإيجاز وقصر الجمل:

إذا قسنا الخطبة في لفظها وعبارتها وجملة أسلوبها بما يتطلبه مضمونها من الإطناب نظراً لسعته، وخطورته، وتشعب أفكاره، ومتعلقاته المعنوية، فإننا نشهد إيجازاً بديعاً في خطبة عالية الرتبة في باب البيان، فقد استطاعت أم المؤمنين -رضي الله عنها- أن توجز ما يحتمله كل ركن من أركان الخطبة في عبارات معدودة ملائمة، دون أن تسهب في القول، وحملت جملها القصيرة ذات الإيقاع المؤثر، الكثير من المعاني التي تتلطف في

(١) ينظر: مبحث الصورة في هذا البحث .

عبارتها القصيرة إلى قبول العقل لها، بما أوتيت من قوة البلاغة ودقة التعبير، فهي حين أرادت أن تصف سبق أبيها إلى الإسلام والفضائل، جاءت بجمل ثلاث حوت تأريخا طويلا لأبي بكر -ﷺ- في جاهليته وإسلامه، فقال: "أنجح إذ أكديتم وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد" ثم تتبع هذه الصورة بصورة أخرى تفسر فيها بعضاً من مجمل إشارات قولها "فتى قريش ناشئاً. وكهفها كهلاً، يريش مملقها ....".

والخطبة تسير على هذا النهج القولي الموجز العبارة حتى إذا ما جاءت في حديثها عن المرتدين، والمنافقين، وما كادوا لدين الله، قالت: "واضطرب حبل الدين، ومرج عهده، وماج أهله، وبغي الغوائل، ونصبت الحبائل، وظنت رجال أن قد أكتب نهزها، ولات حين الذي يظنون، وأنّى والصديق بين أظهرهم...".

ولك أن تتصور ما وراء تلك الجمل القصيرة الموجزة العبارة من المعاني الكثيرة التي عني بشرحها المحدثون وكُتّاب السير في أحاديث أضعاف تلك العبارات القصيرة، المحكمة البناء.

وليس هذا الإيجاز معيباً في الأسلوب الخطابي، ولا مقياسا من مقاييس الضعف فيه، ولا هو دليل على قصور في ملكة الأداء لدى الخطيب، بل هو انعكاس لإيقاع الموقف الذي يؤدي فيه الخطيب خطبته، وهو هنا موقف إيجاز، وافق جانباً من جوانب البلاغة. فمن البلاغة الإيجاز، مادام الخطيب قادراً على امتلاك مشاعر جمهوره، ومعايشته لكل ما يقوله، وإفهام المتلقين الحقائق التي يرمي إلى عرضها من خلال تملكه لبؤرة الشعور بما يكفي لضمان نجاح توصيل ما يرمي إليه من وراء خطابته، ولا يتحقق ذلك إلا بمواءمة الكلام لمقتضيات الأحوال، واتساق المقال مع المقام[1].

(١) ينظر: النثر الفني ص (١٠٥).

وذلك خير أسلوب يحتاج إليه الخطيب الذي يعتمد على الإلقاء الشفوي كي يتحكم بعواطف السامعين بنبرات صوته وقصر عباراته، وتوالي وقفاته، فالجمل القصيرة متلاحقة الإيقاع سريعة الأداء، سريعة الفهم، لا تحتاج إلى تدبر وجهد من السامعين[1]، فانظر إلى قولها -رضي الله عنها-: "ضرب الدين بجرانه، ورست أطواده، ودخل الناس فيه أفواجاً، ومن كل فرقة أرسالاً وأشياعاً". وإلى قولها: "فلما حضرته منيته، فسدَّ ثملته بنظيره في المعدلة، وشقيقه في السيرة والمرحمة، ذاك ابن الخطاب ... ففتح الكفرة، ودنخها، وشرد الشرك شذر مذر، وبخع الأرض فنخعها، حتى قاءت أكلها، ولفظت خبيئها".

فإنك تجد الجمل قد رمزت لمعان عدة، أوحت بإيقاعها إلى معانيها المتصورة، حاضرة، ماثلة لك أعيانها.

(١) نقد النثر في تراث العرب لنبيل رباح ص (٢٥٢). الهيئة المصرية العامة الكتاب، طبعة ١٩٩٣م.

المبحث الثامن: الصورة الفنية.

الصورة الفنية: هي تلك الظلال والألوان التي تخلعها الصياغة على الأفكار والمشاعر، وهي الطريق الذي يسلكه الأديب لعرض أفكاره، وأغراضه عرضا أدبياً مؤثرا، فيه طرافة ومنعة وإثارة[1].

وهذه المنعة التي تأتي من خلال إثارة الحواس المختلفة، والعواطف المتباينة عند المتلقي تسهم في تثبيت الصورة في الذهن والوجدان باعتبارهما "نوعاً من الانتباه واليقظة؛ وذلك أنها تبطئ إيقاع التقائه بالمعنى، وتنحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها، وهكذا ينتقل المتلقي من ظاهر المجاز إلى حقيقته، ومن ظاهر الاستعارة إلى أصلها، ومن المشبه به إلى المشبه، ومن المضمون الحسي المباشر للكناية إلى معناها الأصلي المجرد، ويتم ذلك كله خلال نوع من الاستدلال ينشط معه ذهن المتلقي، ويشعر إزاءه بنوع من الفضول يدفعه إلى تأمل علاقات المشابهة، أو التناسب التي تقوم عليها الصورة"[2].

الخيال مادة الصورة؛ إذ هو ملكة مخزونة في العقل، كامنة فيه، يؤلف الأدباء منها الصورة التي يريدونها[3].

وقد أدرك نقاد العرب الأوائل قيمة الخيال في العمل الأدبي، وأنه بقدر عمقه واتساع خيال الأديب، تعظم قدرته على التصوير، وبعث الأثر النفسي للعمل الأدبي، ويرون أن "الكلام المشتمل على الخيال أروع وأشد تأثيراً في النفس من الكلام الذي يكون حقيقة

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن. لصلاح الدين محمد عبد التواب. ص(٩)، الشركة المصرية للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص (٣٢٨).

(٣) ينظر: النقد الأدبي ص (١٦٧).

كله... وذلك لأن الكلام المشتمل على الخيال يجعل النفس شديدة الأنس به، سريعة التأثر بصوره"[1].

وتبرز أهمية الخيال الخلاق في الخطابة؛ لأنها تعنى بالتأثير. والمرء يتأثر بما يشخص أمامه ويراه، ولهذا درجت الخطابة وبخاصة في العصور البدائية على تمثيل العواطف تمثيلا حسيا ماديا عبر الخيال[2].

ومن تأمل أسلوب خطبة عائشة -رضي الله عنها- يجد فيها حشداً من الصور البيانية التي وشحت بها -رضي الله عنها- خطبتها، فكثيراً -كما سترى- ما لجأت إلى التشبيه، والاستعارة، والكنايات البليغة، والمجازات المرسلة، والأساليب المعنوية التي أسهمت جميعها في إيصال رسالتها التي تريد تبليغها إلى أبنائها المسلمين.

وقد حققت تلك الوسائل التعبيرية الأثر الموكل إليها بالتأثير في السامعين، كما أسهمت بدقة متناهية في الإبانة والإيضاح لما تصوره من معاني، وهو الأمر الذي ينشد الخطيب والأديب عادة في تعبيره بها فـ"التعبير بالصورة يعطي العمل الفني قيمته، ويهيؤه للقبول ويزيد المعنى وضوحاً"[3].

وسنقف عند جملة من الصور والأساليب التي توضح مدى عناية عائشة -رضي الله عنها- بتصوير معانيها في أسلوب بليغ يتوشح بالخيال البديع، مع إحكام العبارة، ودقة الأسلوب في أدائه المعني، فبالقدر الذي يكون الأسلوب قوياً مؤثراً واضحاً، يكون تأثيره في النفوس، واستيلاؤه على الأذهان والقلوب كبيراً، وبقدر خلوه من القوة والجمال

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب، ص (٥١٠).
(٢) ينظر: النقد الأدبي لغنيمي هلال، ص (١٩٦)، وخطب خلفاء بني أمية للدكتور عبد الرحمن السلمي.
(٣) ينظر: النقد الأدبي بين القدماء والمحدثين ص (٣٢٣).

والوضوح ضعف تأثيره في النفوس وأدى إلى نفور الأسماع وسآمة القلوب.

وهنا يمكن أن نقرر أن هذا النص الخطابي الذي بين أيدينا امتلك مقومات التأثير بما منحته الخطيبة -رضي الله عنها- من عناصر القوة، والتأثير في عفوية، ودون تكلف، أو إغراق فى طلب صور البيان.

ويمكن أن نتتبع لوحتها البلاغية الفنية الرائقة بحسن تأليفاتها، وإبداعاتها التصويرية على النحو الآتي:

أولا: الصور البيانية:

عمدت عائشة -رضي الله عنها- في أسلوبها إلى استخدام الصور البلاغية المتنوعة، والأصباغ البديعية التي توضح المعنى، وتزيده بهاء وجمالا، وقد غلب على الخطبة البيان في مسائله وصوره المتعددة بين تشبيه واستعارة وكناية ومجازات، جاءت في الكلام عفوية غير متكلفة، كست الجمل براعة في الأداء وحسنا في المعنى، وأضافت قيمة أسلوبية إلى محتواتها ومضمونها البديع.

وعند النظر إلى النص من جهة بيانه وصوره البيانية نجد خطبة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قد حلفت بالمسائل البيانية الآتية:

أ- وردت في الخطبة عدة تشبيهات واستعارات وظفت في خدمة المعنى، ووضعت في موضعها الذي يليق بها، إذ نجد قولها "ذاك طود منيف" من صور التشبيه الجميلة، لما فيه من بليغ التشبيه، وما يحققه من المبالغة في اتحاد المشبه بالمشبه به، حتى كأنهما شيء واحد، فإيهام اشتراك الطرفين في جميع الصفات دون الصفة المقصود وحدها يجعل الكلام كأنه حقيقة، ويؤكد المعنى عن طريق التماثل التام بين المشبه والمشبه به.

وهكذا ما نلمسه في قولها "ظل مديد" فإن تشبيه أبي بكر بالظل الوارف، ونعيمه الممتد، وإحسانه الشامل، ووقايته من الحر اللاهب يجعل الصورة ذات أبعاد معنوية متنوعة، وإيحاءات تنفذ من خلال صورة التشبيه البليغ بالظل المديد، وهي من جمل البيان الفريد المبتكرة لما توجزه من المعنى، وما تحمله في طياتها من خيال بديع. فضلاً فيما أعتقد من جدتها وطرافتها في باب التشبيه وصورته.

ب- أما لجوء الخطيبة المفوهة بلسانها البليغ وأدائها الرائع إلى الاستعارة، وهي صورة من صور التشبيه تدخل فيه المنشيء بحذف أحد طرفيه، ادعاءً لقوة تمكن المعنى في المشبه، فإن عائشة -رضي الله عنها- قد حشدت في النص عدة استعارة رائعة، وكانت هي الغالبة على أسلوبها.

ففي قولها: "وكهفها كهلاً" استعارة تصريحية، لنقل معنى الكهف الحقيقي، ودلالته وإيحاءه إلى شخصية أبي بكر، بتشبيه بديع، وقد جوز لها هذا النقل البديع للمعنى، ما لمسته وما يدركه العقل من لجوء الناس إلى الكهف عند الخوف ونزول الكرب، فهم أيضا يلجؤون إلى أبي بكر عند الحاجة إلى معونة الحكم، وسداد الرأي، وصواب المشورة؛ للإفادة من خبرته ومشورته.

وهكذا تتبع عائشة -رضي الله عنها هذه الصورة الاستعارية بثلاث صور استعارية في قولها "يريش مملقها، ويرأب صدعها، ويلم شعثها" والضمير في كل يعود إلى قريش، والمسند إليه في الجمل الثلاث يعود إلى أبي بكر، فالاستعارة التصريحية التبيعية في "يريش، ويرأب، ويلم" تعطي معنى الإصلاح، والتأليف. وقد استخدم كل فعل من الأفعال المتقدمة في معنى يلائمه حيث نقلت مثلا رأب على الاستعارة من أصلح الشيء بمعنى ضم أجزاءه وجبر كسره إلى

إصلاح الأمور وتأليف القلوب، ففي أساس البلاغة قال الزمخشري: "يرأب أمور الناس" يصلحها.

وتلك صورة بديعة التقطتها بلاغة عائشة -رضي الله عنها- من بلاغة قومها، ولغتهم، واستعانت بها في إيجاز معنى كان سيضل في سيل من العبارات والجمل، تداركته بهذه العبارة الموجزة الموحية بكل معانيه دون إسراف في القول، أو تكلف في العبارة، أو إطالة مملة، وهذا مما تعطيه الصورة للمعنى، متى أحسن الأديب أداءها وتوظيفها.

ونجد الشيء ذاته في قولها "حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون" ففي كل من "يحيي وأمات" استعارة تبعية، تصور الحفاظ على السنة، وإشاعة الإسلام في عهد الشرك، وطغيان الباطل بالإيحاء، وتظهر طمس الحق، ونكرانه، بالإماتة، وقد يكون ذلك في حال الإسلام بعد تمسك أبي بكر -ﷺ- بسنة المصطفى -ﷺ-، وتتبعها في أحواله كلها، وضلال من ضل ممن رأى خلاف السنة في مسائل الدين.

ومثل ذلك في جملها المتوالية في الحديث عن قريش وموقفها من أبي بكر لصده عن الإسلام وإظهاره، "فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وامتثلته غرضاً، فما فلّوا له صفاة".

وهي كما تلحظ استعارات بديعة، تثير خيال المتلقي، وعواطفه، وتحيله على تصور متخيل لحال قريش وقد فزعت لحرب الإسلام ممتثلا في أبي بكر، وقد تمثلت في صورة الصائد الذي حدب إلى قسيه وسهامه، ليوقع فريسته وصيده، ثم آب من ذلك بفشل الذريعة، حتى ذهبت آماله سدى، وضاع مآربه في تحقيق هواه وغرضه، إنها استعارات مكنية أضافت إلى وضوح المعنى، جمال الصورة بالتكنية عنه بالصورة في الاستعارة التمثيلية، وكأن الأمر قائم على تشبيه

حرصهم لإيذائه باللسان بصورة القناص الحريص المتأهب لإيذاء صيده بالسنان.

أما قولها "فما فلوا لها صفاة" ففيه ما يروع الألباب. فلما صورت حال قريش مع أبي بكر وإيذائهم له، ودفعاً لتوهم السامع أنه قد نالوا منه ما صبوا إليه، أتبعت ذلك بالنفي "فما فلوا له صفاة"، يقولها فما "فلوا" مناسبة لذكر السهم فيما تقدم، ففلول السهم إصابته الحجارة الملساء دون التأثير فيها، وتستعير ذلك المعنى البعيد للإشارة إلى عدم نيلهم من أبيها -ﷺ-، ثم تشبهه بالصفاة في جانب القوة والصلابة، وهي كسابقتها من جمال الاستعارة بمكان.

والصورتان توحيان بمعان متعددة، يدركها السامع القارئ للخطبة عند تأملها، فهما يستثيران الخيال لتصور أبعاد شخصية أبي بكر في إيمانه وقوته وصلابته في الحق، وثبات جنانه، وعدم تبديل موقفه من الإسلام، وكل ذلك مما يجعل أفضليته قائمة في استحقاقه لحب النبي -ﷺ- وخلافته من بعده.

وإذا تحدثت عائشة -رضي الله عنها- عن الدين واضطراب أمره بعد موت النبي، وما كان من المرتدين، والمنافقين، وحال أصحاب الهوى والنفاق إبان ذلك، أجملت القول وأوجزته في استعارات هي غاية في البراعة والدقة والإحسان في تصوير المعاني، وقالت: "فلما قبض الله نبيه، اضطرب حبل الدين، ومرج عهده، وماج أهله... وظنت رجال أن أكثب نهزها".

وهي تعمد إلى هذا اللون من التشبيه الحسي في "اضطرب" و"مرج" و"ماج" وهي بمعنى لم يستقر في محلّه. واختلط وتحول عن أهله، لتؤكد تحقق المعنى. فالاستعارة تحقيقية، فضلاً عما توحي من المعاني الكثيرة الممتدة داخل بناء الاستعارة، والتركيب اللغوي. فما تشير إليه لفظة "اضطرب" من عدم الثبات والاستقرار مستعارة لحال

العرب بعد موت رسول الله -ﷺ- تعطيه كلمة "ماج ومرج" وما يحملان من صور الاضطراب في حركة الماء المضطرب، والامتزاج بين العذب والأجاج، وفيهما معنى بديع بأخلاط الناس وقد مرجوا وتلاقت أهواؤهم على الباطل بعد موته ﷺ، ولعل في ذلك التركيب أيضا إشارة لطيفة لما أصاب الناس في بدء الأمر من الحيرة والتشكك، وخاصة من لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، أو فرضه عليهم التبعية لأقوامهم، أو إغراءات النفس المولعة بالهوى ودواعيه.

ومن جهة أخرى نلحظ في قولها -رضي الله عنها-: "وظنت رجال أن قد أكثب نهزها" براعة الاستعارة، وحسن استخدام الصورة في التعبير عن المعنى لتمثيله في العقول، فقد شبهت حال هؤلاء القوم الذين تصور في عقولهم قرب ضعف الدولة الإسلامية، وتحقق مآربهم، بصورة من يتربص الأمر، لاختلاسه والظفر به.

وفي هذه الصورة تصوير دقيق للجانب النفسي الذي تلبس به من ارتاب في أمر الإسلام، وما وسوست له نفسه في تلك الحال، وما داخله من الشعور بالتربص والتخطيط، وتدبير المكائد، للإيقاع بالمسلمين، والتخفي؛ حتى يحقق مآربه، وينال مقصده، وما سولت له نفسه من الآماني الكاذبة، ومعسول الأحلام بتحقيق ما يريد.

وعند تصوير موقف أبي بكر -ﷺ- من هؤلاء تطلق العبارات البيانية الموجزة، لتختصر الرد التأريخي لعصر أبي بكر وجهوده، وتعمد إلى إيجاز ذلك في قولها "فرفع حاشيتيه، وجمع قطريه، ولمّ شعثه، وأقام أوده بثقافه"، وإذا تأملت "حاشيتيه، وقطريه، وشعثه، وأوده" وجدت أن الضمير يعود إلى الإسلام الذي نكب ببعض المنتمين إليه، فجاء أبو بكر وأعاد إليه عزّه. فاستعارت للتغير عن ذلك هذه الصور المترادفة في المعنى، بتشبيه عودة الإسلام مرة بالنهر الذي يفيض ماءه عن جانبيه فأعيد إلى مجراه، ومرة بالمحور له طرفان ندّ أحدهما فجمعا إليه، و مرة بالرمح اعوج فأقيم واعتدل.

وهذه الاستعارات وسابقاتها في الخطبة حية ملموسة في محيطها، وقريبة في إدراكها، وقد استنبطتها عائشة -رضي الله عنها- من بيئتها، وأحسنت -رضي الله عنها- في تقريب المعقول بالمحسوس، توضيحاً للمراد، ولا يعابُ ذلك من الأديب متى أجاد في توظيف الدلالة الاستعارية في خدمة المعنى، وبيانه.

والاستعارات الحسية مداد معنوي قوي عند عائشة في خطبتها، تلجأ إليها لأغراض شتى، أكثرها جلاءً توضيح المعنى، وإيجاز العبارة، فالاستعارة ترتفع فيها الأشياء إلى مرتبة المعنى الإنساني مستعيرة صفاتها أحياناً، وصورتها المجسمة أحياناً أخرى، ولقدرة الأشياء الملموسة على تشخيص المعاني بأبعادها المدركة المجردة.

و"شرد الشرك شذر ومذر" من هذا النوع الأسلوبي الذي يصور المعنى المعقول بصورة الحسي المدرك ليدرك تصوره، وأبعاده، ويحقق ما يصبو إليه المتحدث دون وهم أو إيهام في المعنى، مع ما يرسمه من صور خيالية بديعة. فقد صورت الخطبة هنا الشرك وزواله بالجيش الذي فرق شذر ومذر، ولك أن تتخيل صور فلول الجيش، وقد ولّت هاربة، وتفرقت فزعة خائفة، يلاحقها شعور الخوف، ومرارة الهزيمة. لتدرك ما نال الشرك من الزوال والاضمحلال على يدي أبي بكر، وجيوشه المؤمنة.

وفي الجملة جانب بياني آخر، وهو: المجاز المرسل الذي يعدُّ بعداً آخر للمعنى يتعلق بالمشركين أنفسهم، وما يتصور من حالهم، وتفرقهم، وتمزق شملهم، فكأن عائشة -رضي الله عنها- لا تريد الشرك ذاته، وإنما أرادت أصحاب الشرك والداعين إليه. وفي تضعيف اللفظ "شرَّد" ما فيه من الإيحاءات الواضحة بالتخويف والتنفير إضافة إلى ما تقدم في ذلك.

ويرتبط بهذه الصورة صورة تالية لها، توضح ما عاد على الإسلام ووطنه وأهله من الخير، وما أخرج الله لهم من كنوز الأرض.

جزاء موفوراً، فما إن استقر الإسلام، وفتحت الكور، ومصرت الأمصار حتى فاضت الأموال، وأتى خراج الأرض والزكاة من مصر من أمصار الإسلام. ولتصور عائشة عدل أبيها، وقوته في جهاده وإيمانه، أرسلت هاتين الصورتين الخياليتين البارعتين في احتوائهما المعنى في إيجازه ودقته فقالت عن ذلك: "فقاءت -الأرض- أكلها"، و"لفظت خبيئها". فأوجزت ما أخرجته الأرض مما احتوته بطنها من الكنوز بقاءت أكلها. وهذا اللفظ وإن كان غير مستحسن في الذوق إلا أن جماله عاد من حسيته في الحركة التي تشبه حال من يخرج ما في بطنه فهي صورة استحدثتها عائشة في خطابها تقريباً للمعنى، ولا يؤاخذ الأديب في اختياره إذا كان جمهوره، ومتذوقو أدبه، يدركونه مراده.

ثم أردفت بقولها "ولفظت خبيئها" وهي استعارة بديعة أخرى توضح الأولى. فالأرض تلفظ وتخرج، وهي صورة حركية مصورة بعناصرها وجزئياتها ما أرادته الخطيبة، تقتضب القول في العبارة عنها، وتكفي الخطيب مؤنة الإطالة، وتلك هي البلاغة التي يجب أن تتحقق في الخطيب البارع، فالإطالة المملة تحول بين المستمع وبين إدراك المعنى، فكثير الكلام ينسي آخره أوله.

وفي حديثها عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وزهده وانفتاح الدنيا في عصره، فلم يأبه بها، ولم تألفها نفسه، فهي تتعرض له بزينتها وحسنها، وفتنتها، ترأمه وتسترضيه لينعم بنعيمها، فيأبى، ويصلد عنها، وتصدى له ويأباها أرادت الخطيبة -رضي الله عنها- بيان هذا المعنى النبيل في شخصية عمر وحاله وحال الدنيا بفتنتها حياله، فاستعارت عبارتين موجزتين "ترأمه ويصلد عنها" و"تصدى له ويأباها" وهما كما نلحظ قائمتان على الاستعارة التي شبهت فيهما الدنيا بالناقة ترأم وتعطف فصيلها، والفتاة الحسناء تصدى بحسنها، وعمر -رضي الله عنه- في الحالين يأنف من الخضوع والاستسلام.

وتلازم الحركة والحسية الصورة في هاتين الصورتين أيضاً، فحركة الناقة الرأووم، وهي تعطف على فصيلها، تبدي له دفء حنانها، وحبها، ومشاعرها، وتصدي الفتاة وقد أظهرت حسنها إغراء وفتنة حركتان بعيدتا التأثير في النفس لنتصور مدى صغر الدنيا في عين عمر -ﷺ- وقد فتحت كنوز الدنيا أمام عينيه.

وفي إشارة أخرى تكني عن فضله وسبقه إلى الإسلام ونصرة نبيه، وشجاعته وإقدامه حين أحجم الناس عن المسارعة في الخيرات، والدفاع عن الرسول -ﷺ-، وإعلان الإسلام بشجاعته وفداء بقولها "سبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد، ويحمل من جانب آخر التشبيه البليغ الذي يشبه فيه حاله بحال الجواد المستولي على الأمد.

وعند تواضعه وخشيته وضعفه في الله،ترسل كناية بديعة تصفه فيها بـ"وقيذ الجوانح" أي عليل الضلوع القصار القريبة من الفؤاد، فكأنه قد اعتل فؤاده من جرّاء بكائه من خشية الله، فظهر أثر هذه العلة على ضلوعه، وفي التلازم بين العضوين وتقارب الأثر تصوير في غاية الدقة، ويشير إلى قدرة عائشة -رضي الله عنها- على استعمال الألفاظ والتراكيب في معانيها الأصيلة، وفيما تنقل إليه من لوازم معناها استعمالاً بارعاً، وليس ذلك بغريب على بلاغتها وبيانها.

وهكذا ندرك طرفاً من بلاغة عائشة -رضي الله عنها- في الجانب البياني من أسلوبها، وقد بثت هذه الصور الاستعارية في خطبتها معتمدة على قدرتها في إيضاح المعنى، وإرسال التمثيل له في براعة وإجادة، وقد أضافت إلى معانيها العقلية المجردة بعداً خيالا ساميا، لما في صورها من سمو الخيال وعمق التفكير،وهو ما تحققه الاستعارة -غالباً- في تشخيصها للمعاني المجردة[1].

(١) ينظر:الصورة الفنية في شعر أبيتمام عبدالقادر الرباعي،ص(١٦٩).

ج- وفي ظل موضوع الخطبة وما له من امتدادات تأريخية واسعة، وما يقتضيه من إطناب وإسهاب، وما يتطلبه الموقف من إيجاز في رسالة قوية يصل مداه ما تصله أسماع السامعين، وتتناقله أفواه الرواة المشافهين، لوّنت -رضي الله عنها- في خطابها، ونوعت الأساليب بين مجاز واستعارة وكناية.

ومن الكنايات البديعة في الخطبة تلك الإشارة الأولى في قولها "لا تعطوه الأيدي" ففيه إشارة إلى رفعة المكانة، وعلو المنزلة، وما يمتلكه من مناقب جمة في جاهليته وإسلامه لا يحظى بها غيره.

ولننظر إلى الكنايات في قولها عن الإسلام بعد وفاة رسول الله -ﷺ- "وبغي الغوائل، ونصبت الحبائل".

ثم قولها عن فعل أبيها للإسلام، وردّه الحقوق إلى أهلها وعدله "وأراح الحق على أهله" بأخذ الزكاة من المانعين لها، وإعادتها إلى مصارفها، وإلى المستحقين لها في الإسلام.

وتمتزج الكناية بالاستعارة والمجاز في بعض أقوالها -رضي الله عنها- في مثل قولها "وقاءت الأرض ... ولفظت خبيها...".

والكناية صور من صور البيان العربي لها أثرها القوي في إثبات المعاني، وترسيخها، وهي تمد الأديب بميدان فسيح، وواسع للتعبير عن معانيه، وانتقائه.

ولا غرو في ذلك فإن فيها إقناعاً للنفس، وإقناعاً للعقل، ودعماً للكلام بالحجة والبرهان، وفيها تعبير عن المعاني المستهجنة بألفاظ مستساغة، وعبارات مرضية لا تشمئز منها النفوس، ولا تعافها الآذان[1].

(١) ينظر: خطب خلفاء بني أمية، لعبد الرحمن السلمي ص(٤٥١).

د- وإذا تأملنا الخطبة من جانب آخر في الصورة الفنية، يتعلق بطرائق التعبير، وتأليف الجمل، والتصوير المجازي، نجد أن الخطبة حفلت بصور مجازية مرسلة، وأخرى عقلية، أدت ما يتطلبه المعنى من الدقة، أو التخييل المفضي إلى التصور الإيمائي للمعنى، ومن تلك المجازات ما جاء في قول عائشة -رضي الله عنها- "حتى ضرب الدين بجرانه" ففيه إسناد الضرب إلى الدين، على سبيل المجاز العقلي، وهو لون أسلوبي خلاب، يبدو أثره في الكلام من ناحية المعنى، وما يكسبه إياه من الفخامة والمبالغة، وهكذا في اللفظ. وما يكسوه به من العذوبة والحسن، مما يعود على الأسلوب بقوة السبك، وإيجاز العبارة عن المعنى.

ومن ذلك أيضاً ما وصفت به عمر رضي الله عنها بقولها "فتح الكفرة ودنخها" ففي التعبير عن "الكفرة" مجاز مرسل بعلاقته الحالية؛ لأن عمر لم يفتح الكفار، وإنما فتح بلادهم، فأفاد التعبير المجازي الإحاطة ببلادهم، واستحواذ المسلمين عليها.

وسبق أن أشرت إلى أن الكناية في صياغتها حملت معاني مجازية ضمنية، وفي هذا دلالة على سعة الأداة الأدبية عند عائشة -رضي الله عنها-، وذاك نابع من قدرتها على تلوين الخطاب بأساليب بيانية، تكيف الصورة، وترسل المعاني بوجوه متعددة من التعبيرات الأدبية البليغة.

ه- وحفلت الخطبة أيضاً بالصيغ البديعة التي تتمم الأسلوب،وجمله، وعمق أفكارها، فإنَّ المحسنات البديعية من متممات الأسلوب الأدبي وكماله. وهي بمنزلة تجميل شكل النص الأدبي. وتعشيق أفكاره، ومعانيه بأسلوب موسيقي رنان، حسن الوقع في الأذن، وقد استحسن النقاد الصور البديعية، وأشادوا بمن يأتي بها في

أسلوبه من غير تكلف، ما دامت تؤدي وظيفة تعبيرية لها دورها الحيوي في تشكيل المعنى وإبداعه(١).

والعفوية ودقة الاختيار في استخدام اللون البديعي في خطبة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- ظاهر، فما ورد من محسنات يأتي على لسانها عفواً دون تكلف، أو قسر للألفاظ لتحمله. وهذا ما حقق له الجمال في أسلوب الخطبة، وزادها تأثيراً؛ إذ جاء موافقاً للقدرة التعبيرية التي تحسن تنغيم الكلام، وتحسين مستوى إيقاعها طبعاً وسجيةً، إدراكاً لأثره في تحريك النفوس وعواطف السامعين، مع ما يضيفه على المعنى من فخامة وجلال أحياناً.

ومن تلك المحسنات التي يقف عليها القارئ في الخطبة الطباق في قولها: "أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم" فالتضاد بين أنجح وأكدى، وسبق ووني قوّى المعنى، وأكده بذكر الضدين، فقد نجح أبو بكر حين خاب غيره، وسبق إلى الإسلام والخيرات حين تأخر غيره.

ومثله الطباق في جملتي "ترأمه ويصلد عنها، وتصدى له ويأباها" فقد تضادت ألفاظ الجملتين في طباق بين ترأم ويصلد، وتصدى ويأبى، وفي تقابل المعنيين في الجملتين "ترأمه ويصلد عنها" وفي الأخريين "تصدى له، ويأباها" والتضاد هنا بين الألفاظ في ذواتها والجمل برمتها، أبرم قوة للمعنى زادته توكيداً وعظمة، وصورت زهد عمر -رضي الله عنه- في جلال من الصورة يعدل ما هو عليه في حقيقة حاله وشأنه.

ولا شك أن بلاغة المقابلة ترجع إلى تأثيرها من ناحيتين: من ناحية مجيئها في الأسلوب سلسلة طبيعية من غير تكلف، فتبعث في

---

(١) نظرات في تراثنا البلاغي، لحسن طبل، ص (٣٣)، مكتبة الزهراء، ١٩٩٣م. وينظر: خطب خلفاء بني أمية ص (٤٤١).

الأسلوب نمطاً من التوازن والتناسب، له حسنه وبهاؤه. ومن ناحية ما تحققه في المضمون حيث يظهر المعنى واضحاً جلياً مترابطاً، ففيها يتم ذكر الشيء وما يقابلها، مع عقد مقارنة بينهما، فتتجلى خصائص كل منهما، وهي من هذه الناحية تشبه المطابقة[1].

وتأمل ذلك في قولها -رضي الله عنها-: "حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون" ونحوه قولها "فتي قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً" وما تقدم من جمل، لندرك أن قيام المقابلة على الجمل، وبناءها على المواجهة بين معنيين فأكثر يضيف للمعنى أبعاداً ومعاني تثيرها في الخيال المطابقة والمقابلة بأسلوب التضاد والتقابل.

وتظهر عفوية الخطاب، وخلوه من التكلّف، وهو الطبع الذي نبع من الاسترسال البليغ دون تصنع مقيت في الأسلوب الخطابي، وتأثر بأسلوب القرآن، وجوامع كلمه ﷺ، الذي جاء الحديث فيها مرسلاً في سلاسة ووضوح. يظهر ذلك في العبارة المسجوعة البديعة في قولها: "فلما حضرته منيته، فسد ثلمته، بنظيره في المعدلة، وشقيقه في السيرة والمرحمة".

وهكذا ظهر الازدواج في الخطبة حيث جاءت جملها متوازنة غالباً، وهو من صفات النثر الحميدة.

وقد عدّه أبوهلال العسكري ركنا من الأركان التي يجب توافرها في أي خطبة إذ يقول:"اعلم أن الذي يلزم في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط،ولا يلزمك فيها السجع،فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه،وتنافر،وتعقيد"[2].

---

(١) دراسات منهجية في علم البديع، للشحات ص (٦٧) دار خفافة للنشر، طبعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص (١٦٥)، تحقيق: البجاوي، ومحمد أبو الفضل، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي.

وقد لاحظنا أن ما جاء من تلك الألوان البديعية من سجع وازدواج وجناس وغيرها في هذه الخطبة البليغة، إلا ما تطلبه المعنى واستدعاه، جاء عفويا، وهو شرط في حسن هذه الألوان. وشرط لقبولها، يقول عبد القاهر الجرجاني عن ذلك التوظيف الجيد لتلك الأصباغ: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساقه نحو. وحتى تجد لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن، وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه"[1].

وكثافة الصورة البيانية التي تتابع في الاستعارات والتشبيهات التي لجأت إليها عائشة -رضي الله عنها- في تصوير معانيها، وما رافق ذلك من الاستعانة بالألوان والأصباغ البديعية، دليل على بلاغتها وتذوقها البليغ للكلام الحسن من جهة، وقدرتها على توظيف ما امتلكه لسانها من بليغ القول في تأدية معانيها.

وكثافة الصور لديها في توظيف المخزون اللفظي في تصوير المعاني بدقة في انتقاء الألفاظ، وتأدية المعاني الواسعة الممتدة في عبارات موجزة، تحمل في طياتها بياناً، ومعاني إيحائية ذات نطاق واسع ينطلق الخيال في تتبعه في أفياء الصورة لتجتمع له بعد ذلك كله لذة الاستمتاع ببراعة الصورة، ودقتها، وحسن تأليفها.

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، ص (١٠٢-١٠٣)، الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، ١٩٧٦م.

المبحث التاسع: التأثير العاطفي

العاطفة من أبرز الوسائل التي توثق الروابط التأثرية بين الأديب ومتلقيه، فهي ممتزجة في تجربة الأديب امتزاجاً لا يمكن فصله، ولا تمييزه بدقه، والصياغة الجيدة رمز لذلك التمازج بين العنصرين الأوليين في العمل الأدبي: التجربة بمادتها الموضوعية، والعاطفة ببواعثها المؤثرة.

وأول المقاييس وأقواها في قياس تجربة الأديب في صدقها، وشموليتها، واختمارها في بؤرة نفسه، وامتلاكها عليه حسه وشعوره، مقياس ذلك كله هو مدى تأثر المتلقي بما يمدد به النص من انفعالات مصورة، تنقله من إحساسه المجرد إلى عالم الأديب وعاطفته.

وليس من مهمة الأداء الفني تضخيم عاطفة أو تهويل موقفي. وليس من وظيفته حشد ركام من الصور تعتمد على مجرد التوليد الذهني والكد الذهني، وليس من مهمته أن يقدم روابط مادية نحسها إحساسا متميزاً، وإنما نطلبُ -فقط- أن يثير أحاسيس انفعالية تقيم وشائج متبادلة بين القائل والمتلقي، وهنا يكون الأداء الفني في بنيته اللغوية، ركيزة الانفعال، وكأنه صورة إشارية لمعاناة تلبست صاحبه.. فالبنية الفنية -في النص الأدبي- ليست نسخاً لفكرة، أو تجميلاً في لوحة لفظية، وإنما تعتمد على ما يشبه البث النفسي الذي يتعدى حدود المقارنة، أو المشابهة أو السَرف في الألوان والزخرفة المتصنعة[1].

(١) ينظر: تذوق النص الأدبي (جماليات الأداء الفني) لرجاء عيد ص (١٠٠). دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

والخطابة في مادتها، وأسلوبها الأدائي، وغاية الخطيب تتساوى في أهمية عنصر التأثير وقوة العاطفة على سائل الفنون الأخرى؛ لأن "التأثير النفسي والإقناع العاطفي من أهم سمات الأسلوب الخطابي، ومن أبرز المقومات التي تكفل للخطيب النجاح في موقفه"(١).

وطبعي أن تعنى الخطابة بإثارة الشعور، وتفضل في ذلك أخواتها من الفنون الأدبية الأخرى، "فالوضوح وحده لا يكفي؛ ذلك أن الوضوح يكفل الإقناع، أما قوة الأسلوب فتكفل الاستمالة، وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب، وهذه القوة هي التي تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب"(٢).

ويلخص نقاد النثر ومؤرخوه في الأدب العربي(٣) حديثه وقديمه وسائل التأثير في الخطبة الناجمة في عدة عناصر أهمها:

١- قوة عاطفة الخطيب وصدقها وحماسة الخطيب لدعوته وقناعته بما يقول، ولعل خطبة أم المؤمنين التي بين أيدينا، وما بعث عليها من دواعٍ سياسية، وإيمانية، وعاطفية تتمثل في الدفاع عن الأب الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، ويصور كل ذلك حماسة عائشة -رضي الله عنها- في موقفها الخطابي، ولنتأمل ما صدر به الراوي نص الخطبة إذ قال:

---

(١) نقد النثر في تراث العرب ص (٢٥٠).
(٢) فن الخطابة للحوفي ص (٣).
(٣) ينظر: المصدران السابقان المواضع نفسها.

"بلغ عائشة -رضي الله عنها- أن قوما ينالون من أبيها -ﷺ- فأرسلت إلى أزفلة من الناس ....، فلما حضروا أسدلت ستارها، وعلت وسادها، ثم قالت: أبي وما أبيه -والله- لا تعطود الأيدي،....الخ.

فذلك مطلع يوحي إليك بالعاطفة الصادقة التي بعثت على خطبة جليلة في موضوعها، ترتجلها خطيبة مؤمنة بصدق مقولتها، فأثارت في سامعيها الإيمان بما تقول، والإنصات لما يلقى على مسامعهم من أحداث وصفات حقة اتصف بها أبو بكر ﷺ.

وفي تتابع العبارة الخطابية في نبرتها القوية المؤثرة التي سبقت الإشارة إليها في الحديث عن الألفاظ ومستوياتها في الخطبة. يصدق الحكم بقوة عاطفة الخطيبة وإيمانها بما تدعو إليه.

٢- ويعد الخيال وبراعة التصوير من الوسائل المؤثرة في المتلقي، أذ يتخير الخطيب العبارة البيانية المجازية كالتشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية، والوسائل الخيالية المؤثرة في عاطفة المتلقي وشعوره، وبحيث تتناسب مع الخطبة[1].

وقد رأينا في دراسة الصورة في الخطبة كيف حفلت الخطبة بوسائل تعبيرية مجازية وبيانية متعددة، كان لها الأثر الأكبر في قوة تصوير المعنى، وأدائه أداءً حسناً، وهي ذاتها وسائل تأثير عاطفي كفل للخطيبة أن تنقل مشاعرها إلى المتلقي، باستثارة عاطفته، واستمالته، وإقناعه بما ترقب الخطيبة المفوهة إيمانه به.

(١) نقد النثر في التراث النقدي ص (٢٥٠).

واستحضاره لما يدعو إلى ذلك الإيمان بما تدفع به عن أبي بكر الصديق من حقائق لا يمكن إنكارها.

ويمكن تأمل قولها "ذاك طود منيف" وما يوحي به من إيحاءات تعبيرية ذات أبعاد خيالية ترسم عظمة أبي بكر وجلال قدره في الجاهلية والإسلام، وهكذا قولها "ظل مديد" الذي رادفت بينه وبين عبارتها السابقة، ولكن إيحاءاته تأخذ أبعاداً خيالية أخرى تضفي على الصورة والمعنى قوة وتأثيراً بعيدين في مداهما.

ولو تأملنا الخطبة عبارة عبارة، وجملة جملة، لوجدنا ذلك التأثير المقنع، والانفعال المؤثر، في كل عبارة، أو لفظة أحسنت في أدائها. ولنأخذ على سبيل الشاهد "فقام حاسراً مشمّرا، فرفع حاشيتيه ... وانتاش الدين فنعشه ... وقرر الرؤوس على كواهلها ... وشرّد الشرّ شذر مذر .. ترأمه ويصلد عنها ... الخ".

وهي كما ترى عبارات تحمل في طياتها صوراً وإيحاءات. تلبست بأدلة منطقية لا تعتمد فيها الخطيبة إلى القياس، وإنما تلجا فيها إلى السرد التعبيري، مما جعل تلاحق تلك الصور في حد ذاته أداة للتأثير، وحشد الصور وسيلة للإقناع الذي لا يجد معه السامع القدرة على الانفكاك من ربقة الإيمان، والتصديق بما تومىء إليه رضي الله عنها.

وهكذا نجد عائشة -رضي الله عنها- بما أوتيت من فصاحة. وما طبع عليه لسانها من بلاغة مؤثرة، وظفت الألفاظ المفردة. والعبارات المركبة، والصور التعبيرية في خطبتها توظيفاً حقق لها قوة عنصر التأثير، الذي جعل الحياة تسري في عباراتها، لتصل إلى القلوب المؤمنة، لغناها بالمشاعر الحية والعاطفة المشبوبة. والصور

الذهنية المعبرة، والجماعة المتلقية عندما تعير أسماعها الخطيب تتأثر بالصور كثيراً، متى كان الخطيب حاذقاً بليغاً أسكر الجميع بتصويره فيثيره أو يهدئه"[1].

ولعل فيما سبق من الحديث عن الصور والأساليب وإجادة الخطيبة في تفعيلها في النص، وإحسانها في توظيفها في خطبتها. يعطي تصوراً دقيقاً لملامح التأثير العاطفي في الخطبة.

(١) فن الخطابة للحوفي ص (١٧٢).

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اله فقد قرأنا الخطبة وعشنا أجواءها العبقة، ورأينا صورة الجيل الأول من أجيال الإسلام المتعاقبة، ومن قرأ الخطبة يدرك ما كان عليه هذا الجيل، بل الصدر الأول عامة من فهم عميق للإسلام وأصوله، واتباعه الدقيق لمنهج النبي ﷺ وسنته، وأوامره ونواهيه.

وتتجلى في الخطبة عدة أمور يعشيها من تأمل نصها جيداً، وقرأ تحليلها الذي -أظن- أنه كشف جوانب مهمة فيها، أجملتها عائشة -رضي الله عنها-في خطابها، وأوليناها عناية في الدرس؛ لكشف ما أوجز في الخطبة وطوته عباراتها البليغة المشحونة بانفعال الخطيبة وسمو عاطفتها.

ومن تلك الأمور التي يحسن الوقوف عندها إجمالاً:

أولا: ما حواه النص من تصوير دقيق وشامل لحياة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وخاصة أبا بكر ﷺ وما اتصف به من نبيل الشيم وجميل الصفات في الجاهلية والإسلام.

ثانياً: تؤيد الخطبة مقولة الأحنف بن قيس ومعاوية بن أبي سفيان في وصفهما لبلاغة عائشة وحلو منطقها، وجمال عبارتها، وبلاغة حديثها.

ثالثاً: الخطبة نص أدبي رفيع المستوى في نمطه الأسلوبي، فقد اكتملت عناصر الخطبة في نص موجز، وأحكمت عائشة -رضي الله عنها- بناءها بناءً، ينم عن مدى ما حوته من علم وفير، وثقافة لغوية واسعة، وما امتلكته -رضي الله عنها- من فصاحة وبلاغة فاقت الرجال والنساء فيها.وظهر تفوقها ونبوغها في مواضع كثيرة. خاطبت فيها أبناءها المسلمين مرشدة، أو معلمة، وداعية إلى الحق، وما خطبها في صفين غائبة عن أرباب البلاغة والدرس الأدبي. وقد

ظهرت فيها خطيبة مفوهة، تلهب العواطف والمشاعر في أسلوب الداعية المشفق، والمؤمن المجاهد، والعدل الناصح.

رابعاً: امتاز أسلوبها في ألفاظه بالقوة والدقة. واتشحت عبارتها بالإحكام والبلاغة، مع اتسمت به من إيجاز باهر، واحتواء لشتى الصور البيانية والمجازية التي تستحضرها الخطيبة حين إطلاقها. فهي وإن جاءت عفوية غير متكلفة إلا أنها كانت مقصودة في شحنها بتلك الشحنات الشعورية المتدفقة المؤثرة في المتلقي؛ تبعث على الإيمان بمضمونها، وعلى التأثر بعاطفتها ووجدانيتها المنفعلة بتداعيات الموقف، مستجيبة لما يفرضه من حشد تلك الصور المجازية المتتابعة، فكأنها قوارع تطرق الأسماع وتهز القلوب، وتعنف العقول التي أسلمت نفسها إلى مقولة باطل، ورأي جاحد ضال.

خامساً: والخطبة درس أدبي يحسن بكل خطيب أن ينال حظاً منه، تعلما، وتتبعاً للنهج القويم للخطابة البليغة في فصاحتها، والأسلوب في بلاغته وإحكامه، وشخصية الخطيب في علمه وبيانه وثقافته الواسعة التي تعينه حين يدعو الداعي إلى ارتجال خطبة في موقف يشبه موقف عائشة -رضي الله عنها- في الدفاع عن أبيها.

وأخيراً أسأل الله أن أكون قد وفقت في اختيار هذا النص للدراسة، وحالفني التوفيق والسداد في دراسته وكشفه، ولم يجانبني الصواب فيما ذهبت إليه في بحثه وشرحه. وهو ولي ذلك والقادر عليه.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو بكر، لعلي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، الطبعة الخامسة: ١٤٢٢هـ.
- أبو بكر الصديق أفضل الصحابة، لمحمد القاسم، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.
- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، ١٩٧٦م.
- أساس البلاغة للزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر، الطبعة الثالثة: ١٩٨٥م.
- أسس النقد عند العرب لأحمد بدوي، نهضة مصر، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤م.
- الأسلوب لأحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، مصر. الطبعة التاسعة، ١٩٩٥م.
- أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، دار طيبة للنشر. الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- أعلام النساء – عمر رضا كحالة، طبعة مؤسسة الرسالة.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر. الطبعة الرابعة.
- تأريخ الخلفاء لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد.
- تأريخ دمشق ٢٩٣/٤٧، دار إحياء التراث بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ. تحقيق: علي عاشور.

- تذوق النص الأدبي، لرجاء عبيد، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.
- تفسير ابن كثير، لأبي الفداء ابن كثير، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ
- جامع الأصول لابن الأثير، طبعة المكتب الإسلامي.
- خطب خلفاء بني أمية للدكتور عبد الرحمن السلمي.
- الخطابة في صدر الإسلام لمحمد طاهر درويش، طبعة دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م.
- الخطبة وإعداد الخطيب للدكتور عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م.
- دراسات منهجية في علم البديع، للشحات، دار خفافة للنشر، طبعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأحمد بن علي القلقشندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٤٠٥هـ.
- الصحاح للجوهري، تحقيق: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ.
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري، دار ابن كثير, اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق:

محمد فؤاد عبد الباقي.

- الصديقة بنت الصديق للعقاد طبعة دار المعارف.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: البجاوي، ومحمد أبو الفضل، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي.
- الصورة الأدبية في القرآن. لصلاح الدين محمد عبد التواب، الشركة المصرية للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- الصورة الفنية في شعر أبي تمام عبد القادر الرباعي، جامعة اليرموك، ١٩٨٠م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، لجابر عصفور.
- عائشة لأحمد عبد الغفور عطار، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.
- غريب الحديث، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ.
- الفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة: ١٣٩٩هـ.
- فن الخطابة للحوفي، طبعة دار نهضة مصر ١٩٩٦م.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ.
- منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم. قرطبة، سنة ١٤٠٦هـ.
- النثر الفني (مي خليف) طبعة دار قباء، مصر.
- نظرات في تراثنا البلاغي، لحسن طبل، مكتبة الزهراء ١٩٩٣م.

- النقد الأدبي، لشوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٦٢م.
- النقد الأدبي لغنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م.
- النقد الأدبي بين القدماء والمحدثين، للعربي حسن درويش، النهضة المصرية القاهرة.
- نقد النثر في تراث العرب لنبيل رباح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٩٣م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: الدكتور محمد جابر الحيني، والدكتور عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٤٠٤هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار إحياء التراث، بيروت، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.